الإسلام والمسلمون فى الفلبين

الجزء الثانى
(طبعة إلكترونية)

تأليف
محمد يوسف عدس

و تقديم
أ.د. محمد إبراهيم كاظم

محتويات الكتاب

الفصل الثاني : المسلمون في الفلبين .....
انتشار الإسلام.....
المقاومة الإسلامية للاحتلال الأسباني .....
حروب المورو" .....
- المرحلة الأولى .....
- المرحلة الثانية.....
- المرحلة الثالثة .....
- المرحلة الرابعة .....
- المرحلة الخامسة .....
- المرحلة السادسة .....
الاحتلال الأمريكيّ .....
- الأمريكيون ينكثون في وعودهم .....
قيصر أديب ماهول وآثار حرب المورو .....
- أعداء المسلمين في الفلبين.....
- القومية المواراوية .....
ماركوس وسياسته تجاه المسلمين .....
- المستوى الأول .....
- المستوى الثاني .....
- المستوى الثالث .....
- تقييم العمل السِّرّيّ.....
- تقييم العمل العسكريّ .....
- تقييم أوضاع المقاومة الإسلامية .....
- سقوط ماركوس .....
الصعود إلى الهاوية .....
- **من بذور الشر تنبت الشجرة الخبيثة .....**
- **دعوة كاذبة وحصاد مغشوش.....**
- **خرافة المشروعات العملاقة.....**
- **الانقلاب السافر على الديمقراطية.....**
- **أحداث ١٩٨٦ ونهاية الطاغية.....**
- **بنينو أكينو المناضل الجسور.....**

- الاغتيال أحد أساليب ماركوس..... .
- مزاعم ماركوس الإصلاحية .....
- جوهر التطبيع ومحتواه .....
- الرضا الأمريكي السامي
- مسلسل التزوير مستمر حتى النهاية
- الحصاد المرّ والاقتصاد المنهار
- انعكاسات التدهور الاقتصادى على الوضع العام
- الجيش الفلبيني كفاعل سياسي
- وقائع ثلاثة حاسمة في سيرة ماركوس
كورازون أكينو
فيديل راموس
جوزيف استرادا
الرئيس بنينو أكينو الثالث واتفاقية بنجسامورو .....
دوافع فلبينية
مؤثرات خارجية
سلام مندناو وتحدّيات المستقبل
العلاقة بين حكومة مانيلا وحكومة بنجسامورو
التحدّى الاقتصادي
تحقيق الجزيرة نِتْ
تفاؤل حذِرْ
التمييز العنصري
مُسْلِمات مورو .. تضحياة وتنمية
التحدّيات المتعلِّقة بالتنمية
الرئيس رودريجو دوتِيرْتى
محادثات السلام مع المسلمين
نبذة عن جبهة تحرير مورو

المراجع
تعريف بالمؤلف للدكتور كمال عرفات نبهان

الجزء الثاني

إنتشار الإسلام في الفلبين

قبل أن يَصل الإسلام إلى المنطقة المعروفة باسم عالم الملايو (جنوب شرق آسيا) ، كان مُسْتقرًا منذ عهود بعيدة في مركزين رئيسين هما : جنوب شبه الجزيرة العربية وشبه الجزيرة الهندية ، وكان الإسلام ينتقل من هاتين المنطقتين مع قوافل التجارة البحرية غربًا نحو المحيط الهادي ، ربما يبطء ولكن بثبات وتَوَاصل .
ظهر التُّجار المُسْلمون في معظم جزر الملايو في نهاية القرن الثالث عشر الميلاديّ .. وقد وُجِدت إمارة مسلمة في شمال سومطرة ، وفي القرن الرابع عشر وجدت إمارات أخرى في « جاوه » و « سومطرة » يَحكمها مُسْلمون .

وفي دراسة قام بها المؤرخ الفلبينيّ « قيصر أديب ماهول » لوثائق تُعْرف في الفلبين باسم « ترسيلات » و« الترسيلة » هي سلسلة النسب التي اعتنَى بها مسلمو الفلبين أكبر عناية واعتبروها من أهم وثائقهم التاريخية المسجلة ، واستنادًا إلى ما كشفته الحفائر الأثرية ، يؤكد وجود مستوطنة لمسلمين وافدين إلى جزيرة سولو بالفلبين في نفس الزمن الذي نشأت فيه إمارة أخرى بشمال سومطرة .
في هذه المرحلة المبكرة برز اسم « تويان مقبل » الذي توفى ودفن في جزيرة سولو سنة ١٣١٠ م ، ولا يُعرف إذا كان هذا التاجر الداعية من أصل عربيّ أو فارسيّ أو هنديّ ، ولكن قبره لايزال قائمًا في الجزيرة ، وفي نفس الفترة عرف مسلم آخر باسم « تويان مشايخ » وكلمة مشايخ جمع لكلمة « شيخ » ، ربما سمَّوه كذلك تعظيمًا لقدره ، وقد خلّف هذا الدَّاعية ذُرية كثيرة حملت نفس الاسم .

وبعد وفاة هذا الداعية بجيلين تقريبًا شهدت سولو تَدَفُّقًا لوفود من الدُّعاة المسلمين كجزء من حركة أَوْسع شملت جاوه وشمال بورنيو . في هذه الموجة جاء متصوفة أو على الأقل دعاة متأثرون بالفكر الصوفيّ ، فقد كان الناس يُطلقون عليهم صفة « الأولياء » ، ويَنْسِبون إليهم قدرات غير عادية .

سقطت بغداد أمام الغزو المغوليّ سنة ١٢٥٨ م. وأدى هذا إلى هجرة أعداد كبيرة من العلماء والدُّعاة إلى إيران والهند ومن هناك خرجوا أو خرج تلاميذهم متجهين إلى عالم الملايو .
في هذه الموجة الكبرى برز اسم « كريم المخدوم » ، وما يبدو أنه لم يكن مخدومًا واحد، بل عدد كبير من الدعاة المسلمين يحملون نفس اللقب ، جاءوا جميعًا إلى جزر الفلبين ، تدل عليهم شواهد قبورهم في العديد من البلدات المتناثرة في "أرخبيل سولو" . كان أَوَّل سلطان مسلم في سولو هو السلطان شريف الهاشم ، ولايزال قبره موجودًا على سفح جبل تومانيا جيس

قرب (بوانسا) . امتد نفوذ هذه السلطنة إلى مناطق أخرى في زامبوانجا ، وفي عهد هذه السَّلطنة المبكرة أُقيمت أول مجموعة من المدارس وبدأ تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، وأخذ الحكم في هذه السلطنة شكلًا منظّمًا لا عهد لجزر الفلبين بشيء منه . فلم تعرف جزر الفلبين قبل الإسلام سوى النظام القبليّ البدائيّ الذي عُرِف باسم البارنجيات .

ارتبطت الأسرة الحاكمة في سولو مع الأسرة الحاكمة في بروناي بعلاقات حميمة بدأَها سُلطان بروناي سنة ١٥٠٠ م بالزواج من أميرة من سولو .
في ذلك الوقت كان الإسلام قد تجذّر واستقر في « جاوه » و « سومطرة » ، ونشر سلطانه على جزء من بورنيو وأجزاء من شبه جزيرة الملايو ، وأصبحت سلطنة "ملقا" التي أُنشِئت في بداية القرن الخامس عشر الميلاديّ مركزًا هامًّا للتعليم الإسلاميّ ، خَرج منه كثير من الدُّعاة لينتشروا في الجزر المجاورة .

وفي سنة ١٥١١ م وَقع حَدَثٌ تاريخيّ كانت له أخطر الآثار على الوجود الإسلاميّ في عالم الملايو ، بل في جنوب شرق آسيا كله ، فقد تمكنت البرتغال من الدوران حول رأس الرجاء الصالح (بجنوب أفريقيا) ، ودخلت في عدد من المعارك مع القوات المسلمة في المياه العربية فأوقعت بها الهزائم ثم اندفعت بكل عنفوانها إلى « ملقا » واستولت عليها ، وهناك استقرت أوَّل قدم للاستعمار الغربيّ في جنوب شرق آسيا .

خرج البرتغاليون في زحفهم نحو الشرق يحملون هدفين واضحين :
أَوَّلهما : كسر احتكار العرب والمسلمين لتجارة البهارات أو التوابل ، وكانت التوابل في ذلك الوقت مثل النفط في هذا الزمن لها قيمتها الاقتصادية البالغة الأهمية كما سبق أن ذكرنا.
أما الهدف الثاني : فكان هدفا دينيًّا هو القضاء على الإسلام وإحلال المسيحية محله في بلاد الشرق .

من أجل ذلك بارك البابا التَّوَسُّع الإمبرياليّ للبرتغال وأسبانيا نحو الشرق ، وتدخل بين الإمبراطوريتين المتنافستين ، فقَسَّم الكرة الأرضية بينهما ، وكانت البرتغال وأسبانيا في مقدمة دول أُوربا في مجالات الكشوف الجغرافية والحملات الاستعمارية نحو الشرق .

لابد أن نذكر هنا أن « ملقا » لم تسقط أمام الغزو البرتغاليّ بسهولة ، فقد فُوجئ البرتغاليون بمقاومة باسلة قام بها السلطان محمد آخر سلاطين « ملقا » ، وظلَّ أقاربه من بعده يقاومون مقاومة مستميتة في مواقع كثيرة حول « ملقا » ، ولكن الذين حاربوا بالبنادق والمدافع انتصروا في النهاية على فرسان السُّيوف والحراب .

العجيب في الأمر أن سقوط « ملقا » سنة ١٥١١ م في يد الغزو البرتغاليّ لم يُوقف انتشار الإسلام نحو أجزاء أخرى جديدة من الملايو كان سكانها لا يزالون على الوثنية ، ويُفَسِّر لنا سرّ هذا بعض المؤرخين الذين ربطوا بين مفاجأة الغزو الصليبيّ وبين انبعاث روح المقاومة في عالم الملايو ، ويَرَوْن أن هذا الغزو هو الذي دَفع الدُّعاة المسلمين في « جاوة » إلى

قمة النَّشاط في نشر الإسلام حتى وصل إلى «تيراني » ، ويشيرون إلى حقيقة تاريخية أخرى لا تقل أهمية ، وهي أن التجار والدعاة المسلمين استمروا بعد الغزو الأوربيّ يفِدُون إلى « الملايو » من أقصى بقاع الأرض .

جاء المسيحيون من البرتغال وأسبانيا إلى عالم الملايو محمَّلين بثقافة شديدة العداء للإسلام والمسلمين بعد صراع دمويّ في بلاد الأندلس انتهى بهزيمة المسلمين وتصفيتهم بالقتل والطَّرد والتنصير القَسْريّ ، جاءوا وهم على وَعْي تام برسالة مقدَّسة ينبغي عليهم تحقيقها وهي إبادة المسلمين في الشرق أو تنصيرهم . ومن ناحية أخرى كان المسلمون في عالم الملايو على وعي بأنهم مسلمون ، وأن الغرباء قد هبطوا عليهم لتدمير حياتهم وتحويلهم إلى عبيد بعد إخراجهم من عقيدتهم الدينية .
وهكذا يرى المؤرخون أن الوعي الإسلاميّ قد لعب دورًا حيويًّا هامًا في تعزيز المقاومة عند المسلمين في الملايو ضد الإمبراطوريّتين البرتغالية والأسبانية .

المقاومة الإسلامية للاحتلال الأسباني

اكتشف « ماجلان » جزر الفلبين سنة ١٥٢١ م ولقي حتفه في نفس السَّنة على يد أمير مسلم ، ثم جاءت القوات الأسبانية بقيادة ليجازبي سنة ١٥٦٥ ، وكان الإسلام قد توطدت أركانه في هذه البلاد ، خصوصًا في الجزر الجنوبية في سلطنات سولو وماجندناوْ وبويان ، وكانت في مانيلا (جنوب نهر باسيج) إمارة مسلمة تحكمها أسرة مسلمة لها علاقة نسب مع الأسرة الحاكمة في بروناي .

وكانت الجُزُر في جنوب شرق آسيا كلها يُوَحِّدها الإسلام ، وإنما استقلت كل مجموعة من الجُزر باسم مختلف في عصر الاستعمار الغربيّ ، حيث سمَّى الأسبان مجموعة الجزر التي احتلوها باسم « جزر الفلبين » نسبة إلى ملكهم « فيليب » ، وظهرت أسماء إندونيسيا وماليزيا وغيرها تعبيرًا عن حدود وَضَعها المستعمرون الهولنديون والبريطانيون .

عندما اقتحم الأسبان خليج مانيلا كانت القوانين الشرعية معروفة ومطبقة في مناطق كثيرة بجزيرة لوسون في « مانيلا) وغيرها ، حتى أن الأسبان تصوروا لأول وهلة أن سكان خليج مانيلا جميعًا مسلمون فأطلقوا عليهم اسم « موروس » ولم يتنبهوا أن نسبة كبيرة من سكان « لوسون » لا يزالون على الوثنية- إلا بعد فترة من الوقت فسمّوْا هؤلاء « إنديوز » .

أما سر تَسْمية المسلمين بـ « موروس » فيرجع إلى أن الأسبان كانوا يطلقون على أعدائهم من مسلمي الأندلس وشمال إفريقيا اسم « موروس » نسبة إلى "مراكش".
وقد تبع ظهور الأسبان في عالم الملايو ظهُور الإمبرياليتن الهولندية والبريطانية ، وكان هذا دليلًا على أن الاستعمار الغربيّ يخترق بإصرار هذا العالم المسلم ، تدفعه رغبة عاتية للاستقرار فيه إلى الأبد وامتلاك ثرواته ، ومن ثم جاءت جهودهم المنظمة لتمزيق هذه الشعوب وتنصيرها وفَرْض الهيمنة الكاملة عليها .
وهنا نقطة هامة لابد من التأكيد عليها ، وهي أَنَّ مقاومة المسلمين في الفلبين للاستعمار الأسبانيّ كانت جُزْءًا من مقاومة على نِطَاقٍ أوسع للمُسْلمين في سائر جزر الملايو ضد الغزو الإمبرياليّ الغربيّ .

ولذلك إذا أردنا أَن نفهم طبيعة المقاومة المُسْلمة في الفلبين فلا ينبغي أن نتناولها كظاهرة منعزلة عن مجمل الصراع في جنوب شرق آسيا .

أَطاحت القوات الأسبانية الغازية بالإمارة المسلمة في مانيلا وَدَمَّرت مستوطنات المسلمين في « مندورو » وقتلت جميع الدُّعاة المسلمين في « باتنجاس » ، ومن ذلك الحين تركزت قلاع الإسلام في المناطق الجنوبية بجزر « سولو » و « مندناو ».
كان الوجود الإسلاميّ في « لوسون » -بشمال الفلبين وفي الجزر الوسطى المسماة « فيسايا »- حَديثَ عهدٍ نِسْبَيًا ، أما في الجنوب فكان عميق الجذور وأكثر ترسّخًا وتنظيمًا ، ولذلك لم يستطع الأسبان احتلال الجزر الجنوبية كما احتلوا الشمال والوسط ، رغم جهودهم

المستميتة ورغم الحروب الشرسة والحصار الاقتصاديّ ، فقد ظلت المقاومة الإسلامية مستمرة أكثر من ثلاثة قرون . وصَمدت هذه المقاومة ببسالة نادرة حتى نهاية القرن التاسع عشر عندما اضطر الأسبان للتخلي عن الفلبين نهائيًا ، لِيُفْسحوا الطريق أمام احتلال جديد هو الاحتلال الأمريكيّ .

وفي الوقت الذي كان المسلمون في جنوب الفلبين يواجهون الأسبان بمقاومة ضارية- سقطت قلاع المسلمين في بقية أراضي الملايو تحت ضربات القوات الهولندية والبريطانية والبرتغالية .
ولابد هنا أَنْ نُلْفِتَ النظر إلى حقيقة أخرى وهي أن جميع سكان جزر الفلبين من غير المسلمين سقطوا تحت أقدام قوات الاحتلال الأسبانية في غضون أسابيع قليلة ، واستسلموا تمامًا لإرادة الاستعمار الأجنبيّ وتدابيره .
ولذلك يحقُّ للمسلمين في الجنوب الفلبينيّ أن يفخروا بتاريخهم النضاليّ المجيد ضد الاستعمار .

حروب المورو

عادة ما يطلق على المقاومة الإسلامية ضد الأسبان في الفلبين اسم "حُروب المورو" ، وقد عرفنا أصل هذه التسمية التي جلبها الأسبان معهم .
ويقسم المؤرخون هذه الحروب إلى ستة مراحل :

المرحلة الأولى :

تبدأ هذه المرحلة من الغزو الأسبانيّ سنة ١٥٦٥ م وتنتهي بغزو « بورنيو » سنة ١٥٧٨، أو بالأحرى سنة ١٥٨١ م .
في هذه المرحلة سَقَط حكم راجا سليمان في مانيلا وتمَّ إخضاع « راجا لاكاندولا » في « توندو » . وكانت السيطرة الاقتصادية للبورنويين في زيادة مضطردة قبل الغزو الأسبانيّ للفلبين وبعده ، وكانت « بورنيو » مَصْدرًا للدعاة المسلمين والإشعاع الثقافيّ . ولذلك نظر إليهم الأسبان بعينٍ حاسدة واعتبروهم مُنافسين خَطرين لابد من إزاحتهم من الطريق ، حتى يتمكن الأسبان من إحكام سيطرتهم التجارية والدينية على جُزُر الفلبين . فانتهزوا فرصة

خلاف نَشَبَ بين أفراد الأسرة الحاكمة في « بورنيو » ، وانْقضُّوا عليهم سنة ١٥٧٨ ثم نصَّبوا واحدًا من أُمراء « بورنيو » تابعًا لهم في السلطنة . ولكن سرعان ما فشلت هذه الخطة إذ عادت الأسرة إلى الوفاق والتلاحم ضد التدخل الأسبانيّ ، مما اضطر الأسبان إلى إعادة غزو بورنيو مرة أخرى سنة ١٥٨١ م . ولكن على الرغم من انتصارهم في بعض المعارك إلا أنهم لم يُفْلِحُوا في إقامة أي مستعمرة في « بورنيو » أو « بروناي » . ولكنهم على أي حال تمكنوا من تقويض السيطرة السياسية والتجارية للبورنويين على الفلبين ، على الأقل في المناطق الشمالية والجزر الوسطى الخاضعة للاحتلال الأسبانيّ .

المرحلة الثانية

وهي فترة قصيرة تمتد من سنة ١٥٨٧ إلى ١٥٩٩ ، حاول فيها الأسبان اختزال السلطنات المسلمة في سولو وماجندناو إلى حكومات تابعة لهم ، كما حاولوا إنشاء مستعمرات في « جزيرة مندناو » ، ولكنهم لم ينجحوا إلا في الحصول على إتاوة مالية ضئيلة من سلطان سولو الذي سمح لهم بإنشاء مركز رقابة في مِندناو ، ولكن سرعان ما كف السلطان عن دفع الإتاوة ، وثار أحد الأُمراء المسلمين على الوجود الأسبانيّ في « مندناو » ، فاضطر الأسبان إلى إخلاء مراكزهم والانسحاب منها . كما أخفقوا في إخضاع السلطان « ديمانسانكاي » سلطان « ماجندناو » ، كما انتهت غزوتهم في « بيوتان » سنة ١٥٩٦ إلى كارثة أصابت قواتهم بخسائر فادحة .

المرحلة الثالثة:

بدأت هذه المرحلة بحملة مُضَادة قام بها المسلمون على الوجود الأسبانيّ في جزر فيسايا المجاورة فهاجموا بعض البلدان لإخضاع سكانها وتمكنوا من أسر الآلاف منهم ، وكان الهدف من هذه الحملة منع الفلبينيين في جزر فيسايا من الانخراط في صفوف الجيش الأسبانيّ الذي كان يجندهم لحرب المسلمين . ولكن غزو الأسبان لجزر ملوك سنة ١٦٠٦ تسبب في كشف ظهر الماجندناو وقطع إمدادات الرجال والمؤن التي كانت تَرِدُ إليهم من الجزر المسلمة المجاورة .

ومع كل ذلك وَاصَل الماجندناو بمساعدة إخوانهم المسلمين في بايوان وسولو هجماتهم على جزر فيسايا وعلى المستوطنات والموانئ الأسبانية الأخرى .

ولاشك أن هذه الهجمات المضادة كانت سياسة حكيمة من جانب القادة المسلمين ؛ لأن الوجود الأسبانيّ لو كان قد تُرك بدون مقاومة مؤثرة لتزايدت شراسته ولأصبح خطره على المسلمين أكبر .

انتهت هذه المرحلة سنة ١٦٣٢ ، عندما أَنْصَت الأسبان لنصائح المبشرين الجزويت

اليسوعيين ، وتَلَقَّوا مساعداتهم في إقامة قلعة حصينة في « زامبوانجا » استطاع الأسبان منها مراقبة حركة الأساطيل البحرية للمسلمين والسيطرة عليها .
وتَعَزَّز أَمل الأسبان بانتصارهم في بعض المعارك على السلطان « قُدْرتْ » سلطان ماجندناو سنة ١٦٣٧ م ، وعلى السلطان « راجابنحسو » سلطان سولو في العام التالي (١٦٣٨) ، مما جعل الأسبان أكثر تفاؤلًا ، وكان اليسوعيون بدورهم قد أعدّوا خططًا أفضل لتحويل المسلمين في سولو ومندناو إلى الكاثوليكية .

ولكن عمليات التنصير توقَّفَت أمام حرب العصابات الضارية التي شنها المسلمون على الأسبان ، فردَّ الأسبان على ذلك بإشعال حرائق منظمة لمساكن المدنيين ، كما قاموا بتجريف المزارع وحدائق الفاكهة ونَسْف قوارب الصيد والسُّفن التجارية التي يملكها المسلمون .
وعمد الأسبان بعد ذلك إلى طرد جميع السكان من المناطق الساحلية كجزء من سياسة مدروسة لحكومة الاحتلال ، ولم يعترض الإخوة اليسوعيون على هذه السياسة الإجرامية .

كان الهولنديون خُصومًا للأسبان فاستطاع المسلمون إقناعهم بتزويدهم بالسلاح ، وتمكنوا بذلك من تصعيد المقاومة حتى اضطر الأسبان إلى توقيع هدنة مع الماجندناو سنة ١٦٤٥ م ، ومع سلطان سولو سنة ١٦٤٦ م ، ثم انسحبوا من قلعة زامبوانجا سنة ١٦٦٣ ليركزوا قواهم في الجزر الشمالية .

المرحلة الرابعة :

من أبرز شخصيات هذه المرحلة السلطان « قُدرتْ » الملقّب بـ « نصير الدين » . استطاع هذا السلطان أن يجمع تحت قيادته المسلمين المارناوْ والإيرانون والسامال والماجندناوْ والبايوان.
وفي اتفاقية مع الأسبان سنة ١٦٤٥ م اضطرهم للاعتراف بسيادته على جميع المناطق المعروفة حاليا بأسماء : زامبوانجا وكوتاباتو ولاناوْ ودافاوْ وكاجيان دي أورو وبوكيدْنون .
وظل « قدرتْ » يحشد المسلمين ويعني بالتدريب العسكريّ وجمع السلاح ، ودعم علاقاته مع جيرانه المسلمين في تيراني ومكسّر وبروناي وسولو ودعاهم لمؤازرته في حرب العدو الأسبانيّ دفاعًا عن الشريعة التي يريد الأسبان تحطيمها وإحلال قوانينهم الوضعية مكانها .

كان وراء هذا النشاط والاستعدادات خبرة سابقة مع الأسبان الذين انتصروا عليه من قبل سنة ١٦٥٦ م ، فَحَزَّ هذا في نفسه ولكنه لم يجزع بل رجع إلى نفسه يتأمل في أسباب هزيمة المسلمين ، وكان يتعلم من أخطائه فلا يُكَرِّرها أبدًا .

لم يحْظَ قائد مسلم من الأسبان بمزيج من الإعجاب والحقد والرَّهبة كما حظي السلطان « قدرت » ، والحقيقة أنه كان يتمتع بجماع الخصائل التي تليق بقائد مسلم ، على مستوى رفيع من التقوى والاستقامة والسَّماحة والصبر والشجاعة إلى جانب الفقه بأحكام الشريعة الإسلامية .

ذكر عنه المؤرخون أنَّه تَفَوَّق على نُظَرائِهِ السَّلاطين والحكام الآخرين برباطة الجأش والصبر في الشدائد، وبالشَّهامة والنجدة والتسامح عند النصر ، وكان قادرًا على التسامي بنفسه والتضحية بمصلحته الخاصة في سبيل مصلحة المجتمع المسلم بأسره .

ويُحْكى عنه أنَّ المُبَشِّرين اليَسُوعيين ذهبوا إليه ليحذروه أنه إذا لم يَسْتجب لمطالب الحاكم العام الأسبانيّ في فتح بلاده للتبشير الكاثوليكيّ، فإن القوات الأسبانية سوف تعود مع حُشود المتنصرين الفلبينيين لغزو بلاده مرة أخرى، وأنهم سوف يحرقون المنازل والمزارع والقرى، فأجَابَهم السُلطان قدرتْ بهدوءه المعتاد:
"فليفعل الأسبان ما يحلو لهم.. إنني لا أعتزم الدفاع عن المنازل والمزارع على حساب أرواح رجالي المقاتلين كما فعلت من قبل، فسوف نترك هذه المنازل، ونلجأ إلى الجبال والغابات لنشن عليكم حرب عصابات لا قبل لكم بها ، أما المنازل والقرى فإن لدينا بالغابة أخشاب تكفي لإعادة بنائها من جديد ".

أَمَام صَلابة موقف هذا السلطان ومع تَجَمُّع المسلمين حوله ومع استعداداته للحرب لم يجد الأسبان مَفَرًّا من الإذعان لمطالبه ، فانسحبوا من قلعة زامبوانجا سنة ١٦٦٣ كما ذكرنا .
ولم يتدخل الأسبان بعد ذلك في شئون السلطنات المسلمة بجنوب الفلبين لمدة تقرب من خمسين سنة نَعِمَ فيها المسلمون بالأمن والسَّلام .

أصبحت سلطنة سولو أكثر قوة عن ذي قبل ، حتى أنها حاولت أن تملأ الفراغ السياسيّ في جزيرة برونيو التي هجرها حكام بروناي ، الذين ضعفوا بسبب تدهور اقتصادهم ، فمزقتها الحرب الأهلية والنزاع المسلح بين أفراد الأسرة الحاكمة .
وفي الربع الأخير من القرن السابع عشر، انتقل جزء من أراضي سلطنة بورنيو إلى سلطان سولو وهي المنطقة التي تُعْرَف اليوم باسم « إقليم صباح » .

وحاول "الماجندناوْ" توسيع علاقاتهم التجارية مع إندونيسيا كما حاولت سولو مع مكسّر وباتافيا (جاكرتا حاليا) ، ولكن الأوضاع في المنطقة تغيرت ، فقد كان الأسطول الهولنديّ يحتكر التجارة في الجزر الأندونيسية فتقَلَّص التبادل التجاريّ بين المسلمين في عالم « الملايو » كله .

وهكذا نرى أن المسلمين في الجنوب الفلبينيّ كانوا لا يزالون أَقْدَر على مواجهة التحديات الاستعمارية الأسبانية وأَقْدَر على الحركة بِحُرِّية ، والتَّواصل مع جيرانهم ، في الوقت الذي كان عالم المسلمين مِن حَوْلهم يتهاوى كالثمار الناضجة في أيدي الإمبرياليين القادمين من الغرب .

كانوا حقًّا في ثورة دائمة ضد الاستعمار الأسبانيّ، ولكن كانت مَوَاردهم تَتَقَلَّص والعالم مِنْ حولهم يتغيَّر وتضيق حلقات الدائرة عليهم يومًا بعد يوم .

وكما كان السَّلام نعمة عليهم إلا أن تدهور الأَوضاع الاقتصادية وتَقَلُّص التجارة التي أصبحت احتكارًا للأَساطيل الغربية ، والحصار الأسبانيّ المستمر ، كل هذا أدَّى إلى بَعْث المنافسات الكامنة بين القيادات السِّياسية ، وإلى الصراع بين أفراد الأُسر الحاكمة على الموارد الشَّحيحة من الأَرض والضرائب ، وجَرَت صِدَامات وحُروب بين ماجندناو و وسولو سنة ١٧٠٢ م .

لم يُوقِف هذه الصِّراعات إلا عودة الأَسبان إلى نشاطهم الاستعماريّ في الجنوب ، فاحتلوا قلعة « زامبوانجا » مَرّة أخرى ، ووضعوا فيها حامية مسلحة سنة ١٧١٨ ، فلما شعر المسلمون بالخَطَر الوافد تَقَاربت صُفُوفُهم وتحوَّلت حُروبهم إلى العدو المشترك ، وهكذا بدأت المرحلة الخامسة من حروب المورو .

المرحلة الخامسة:

كانت أَعْين الجزويت (اليسوعيين) مرَكَّزة دائمًا على هدف رئيسيّ هو إخراج المسلمين من دينهم وتَنْصيرهم ، وتلك مهمَّة ذات جانبين متمَيّزين يحتاج كل جانب منهما إلى جُهود مختلفة ، فإخْراج المسلمين من دينهم ليس بالضرورة مؤدّيًا إلى اعتناق المسيحية ، وإن كان خطوة ضرورية في هذا السبيل ، أو هكذا كانت عقيدة المُبَشِّرين الكاثوليك .

كان اليسوعيون شديدُو الحماس والرغبة في تنصير المسلمين، ولذلك لم يَكُفُّوا عن مُطالبة الملكيّة في أسبانيا بالعمل على تقوية قلعة زامبوانجا لكي تكون مقرًّا آمنا لنشاطهم التبشيريّ ، بينما كانت حكومة الاحتلال الأسبانيّ تتردد في الإقدام على أي عمل من شأنه أن يُقَوّض السَّلام المُنْعَقد بينها وبين سلطنات الجنوب . ولكن الرَّغبة الملكية انتصرت في النهاية على هذا التَّردد، ومن ثَمَّ عادت القوات الأسبانية إلى احتلال قلعة زامبوانجا حاملةً معها جيشًا من المبشرين اليسوعيين .

فزع المسلمون في المناطق القريبة من الإيرانون الذين يسكنون خليج "إليانا وبوتيج" ، فَهَبُّوا خلال العقد الرابع من القرن الثامن عشر الميلاديّ لمحاصرة القلعة، ولكن مدافع الأسبان كانت تحصد قواتهم كلما تجمَّعُوا حولها فاضطر المسلمون إلى التَّراجع ، ومع ذلك لم يستطع المبشرون أن يخرجوا من القلعة إلى الناس الذين أثخنتهم الجراح ، كان المبشرون يخشون من انتقام الأهالي الذين امتلأت قلوبهم بثورة الغضب .

لم يكن مستغربًا حينذاك أن يلجأ الأسبان إلى تكتيك آخر مارسوا فيه الضغوط السِّياسية والاقتصادية بدلًا من الرَّصاص والمدافع ، فقد كانوا يعلمون مدى حاجة المسلمين إلى التجارة ، فعرضوا عليهم أن يتبادلوا معهم التجارة في مقابل السَّماح للبعثات التبشيرية للعمل في مجتمعاتهم . بهذا الخصوص أرسل ملك أسبانيا نفسه عدة رسائل إلى سلاطين

المسلمين مؤكدًا لهم أن هذه البعثات الدينية ليس لها أهدافًا سياسية على الإطلاق وأنها لا تسعى إلى زعزعة حكم السلاطين .

كانت رسائل الملك الأسبانيّ حافلة بمعسول الوُعُود والمداهنة وتَمَلُّق المشاعر؛ فقد استخدم الملك لغة الإطراء خالعًا على السلاطين أَلقاب التعظيم مُصَرِّحًا بالحوافز المادية التي تنتظرهم إذا هم قبلوا طلبه .

صادف هذا عند أَحد السَّلاطين قبولًا ، ذلك هو سلطان « سولو » ، الملقب باسم « عظيم الدين » فانحاز إلى هواه وتخلَّى عن واجبه كمدافع عن العقيدة والشريعة ، فاستحق أن يَثُور عليه العلماء مع أَفراد من أسرته الحاكمة فَأسقَطُوه من عرشه .
ونَصَّبوا مِنْ بَعْده أخاه مُعزَّ الدِّين ، فقاتل الأَسبان قتالا شديدًا ونهض الماجندناوْ بمؤازرته ، وجَاءَته إمدادات بالسَّلاح والرجال من « مكسّر » ومناطق أخرى في "الملايو" ، كان صدامًا دمويًا طويلًا ، توقَّفت فيه عمليات التنصير توقفًا تامًّا ، ولكن فُقدت فيه أرواح كثيرة من كِلا الطرفين: الأَسبان والمسلمين .

كان السلطان مُعزّ الدِّين مخلصًا في جهاده صادقا في مَيْله إلى المُصَالحة والسلام ؛ لأَنه كان يعلم أن سُولو في حاجة ماسَّة إلى التجارة لكي تستأنف حياتها الطبيعية ، ومن ثمَّ هدأت الحروب ونشطت التجارة في المنطقة واستمر الحال على هذا المنوال حتى منتصف القرن الثامن عشر ، عندما ظهر عامل جديد كانت له آثار خطيرة على أَوْضاع السَّلطنات المسلمة ، متمثلًا في أطماع البريطانيين والهولنديين في المناطق الإسلامية في بورنيو والفلبين .

المرحلة السادسة:

في النصف الأخير من القرن الثامن عشر كان البريطانيون يبحثون عن موقع مُناسب لمصنع قرب بورنيو لبدء تنفيذ خطة جديدة للتجارة مع الصين ، وقد تزايد اهتمامهم في نفس الوقت بإنشاء علاقات اقتصادية قويَّة ومباشرة مع بورنيو وسولو ومندناو .
بينما كانت أطماع الهولنديين تتَّجه نفس الاتجاه : تعزيز سلطانهم على جزيرة بورنيو ثم الانطلاق منها إلى سولو .
أغضبت هذه المطامع الإمبرياليين الأَسبان الذين رأوا أنهم أَولى بتأمين حدود مستعمراتهم الجنوبية وإغلاق الطريق أمام الطامعين المُنَافسين لهم من البريطانيين والهولنديين ، ومِن ثمَّ كانت الحملة الأسبانية سنة ١٨٥١ م التي بدأت بسولو وهكذا جاءت المرحلة السادسة من حروب المورو .

ولأَنه لابُدَّ للحرب من سبب مُعلن، اشتكى الأسبان بأن رَعَايا السلطان يقومون بأعمال قَرْصَنة في البحر تُعَرِّض سُفُنهم التجارية للخطر . وحاول سلطان « سولو » من جانبه أن يوضح للأسبان أنه لا يؤيِّد هذه القرصنة وأن تجارة بلاده تُعاني منها كما يعاني الأسبان ، وأنه لا يَدَّخر وسعًا في القضاء عليها .

ولم يلتفت الأسبان لردود السُّلطان بل قاموا باحتلال جزيرة « هولو » ، ولكنهم لم يستطيعوا تطوير الحملة إلى أبعد من هذا المدى فاضطروا إلى عقد اتفاقية سلام جديدة مع السلطان ، وأغلقت سولو صفحة الحرب اعتقادًا بأنها اتفاقية بين أصدقاء متساوين ، لكن الأسبان كانوا يزعمون لأنفسهم ، ويُرَوّجون في دعايتهم الموجهة إلى مُنَافِسيهم من المستعمرين الأوربيين في منطقة الملايو أن « سولو » قد خضعت لحماية أسبانيا ، وكان الأسبان يهدفون من وراء هذه الدعاية إبعاد أنظار الهولنديين والبريطانيين عن الجنوب الفلبينيّ .
لم تكن أسبانيا تهتم بالمواثيق والمعاهدات مع المسلمين وإنما كانت تنتهز كل فرصة مُواتية للانقضاض عليهم بأي حجة ، وبالفعل عادت مرة أخرى للهجوم على "سولو" متذرعة بنفس الشكوى السابقة ألا وهي أعمال القَرْصنة ، فَشَنَّت عليها حملة قوية سنة ١٨٧٦ م ، رَدَّها المسلمون بدفاع أقوى منها ، واضطر الأسبان للمرة الثانية إلى عقد اتفاقية سلام مع سلطان سولو الذي اشترط في هذه المرة أن ينسحب الأسبان نهائيًا من حامية كان قد تركها لهم في جزيرة « هولو » بمقتضى الاتفاقية السابقة .

موضوع القرصنة البحرية واتهام المسلمين بها كان دائمًا هو الذَّريعة التقليدية التي اتخذها الأسبان لشنّ حملاتهم الاستعمارية على المسلمين، والغريب في الأمر أن تبقى هذه التهمة نفسها قائمة في سجلات الصراع بين الحكومات الفلبينية المُتَعاقبة وبين المسلمين الثائرين في الجنوب إلى اليوم ، مما يُعَزِّز اعتقاد هؤلاء المسلمين بأن الحكومات الفلبينية ليست إلاَّ امتدادًا للحكومات الاستعمارية السابقة .

لا يُنْكر المُؤَرِّخون أن أعمال القَرْصنة البحرية كانت تدور في بحرسولو كما وُجدت – على نطاق أضيق – في الممرات المائية حول « مكسّر » و « ملقا » حتى قبل قيام السلطنات المسلمة بزمنٍ بعيدٍ .
كما أن المُؤَرِّخين لا ينكرون أَن السَّلاطين كانوا ضد هذه القرصنة ، وهناك أدلة كثيرة تؤكد أنهم كانوا يُطَاردون القراصنة ويُعَاقبون من يقع منهم في أيديهم ، فقد كان تأمين طرق التجارة مسألة حيوية بالنسبة للسلاطين ، ولم يكن هذا ليغيب عن علم الأَسبان ولكنهم تغافلوا عنه ، بل توسَّعُوا في اتهام المسلمين بالقرصنة عندما وَصَفُوا هجماتهم على القوات الأسبانية وعلى مستوطنات الأسبان في جزر فيسايا وغيرها من المواقع الفلبينية بأنها أعمال قرصنة ، في حين أن الوَصْف الحقيقيّ لهذه الهجمات المضادة من جانب المسلمين أنها لم تكن سوى عمليات دفاعية أو انتقامية من غزوات سابقة استهدف بها العدو المحتل أراضي المسلمين .

ولابد أن نذكر هنا أن المسلمين قبل مجيء الاحتلال الأسبانيّ لم يكونوا يقومون بالهجوم على جيرانهم من غير المسلمين في جُزُر « فيسايا » أو جزيرة « لوسون » في الشمال ، وإنما كانوا يعيشون بينهم في سلام ، وكان الدُّعاة والتجار المسلمون يتحركون في وسطهم بلا خوف ، ولم يكن لدى المسلمين أي مطامع استعمارية أو استغلالية كما كان للأسبان .
لا ينبغي أن نفهم أن حروب المُورو قد انتهت بانتهاء المرحلة السادسة بل استمرت في مرحلة جديدة وفي عهد جديد.

لقد انتهى بالفعل الاحتلال الأسبانيّ ورحلت القوات الأسبانية من مانيلا سنة ١٨٩٨، ودخلت الفلبين كلها تحت احتلال من نوع جديد هو الاحتلال الأمريكيّ ، وذلك بمقتضى اتفاقية باريس التي اضطرت فيها أسبانيا بيع جُزُر الفلبين للولايات المتحدة الأمريكية بخمسين ألف دولار أمريكيّ .

الاحتلال الأمريكي

في العِقْد الأخير من القرن التاسع عشر أَعْلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على أسبانيا بحجة تحرير « كوبا » من الطغيان الأسبانيّ ولكنها بعد أن كَسَبت الحرب ضد أسبانيا وضعت كوبا تحت الحماية ، ثم سعت إلى ضم الفلبين إليها باعتبارها جزءًا من مستعمرات الإمبريالية الأسبانية الغاربة .

والحافز إلى ذلك على حد تَصْريح الرَّئيس الأمريكيّ « ماكنْلي » : أنَّ الله أوحى إليه أن من واجب أمريكا أن تقوم بتعليم الفلبينيين ، وأن ترفع شأنهم إلى مستوى الحضارة وأن تقوم بتنصيرهم ، ثم يقول : « سنبذل أقصى جهدنا بمشيئة الله من أجلهم باعتبارهم إخواننا الذي مات المسيح من أجل خَلاصهم » .

ويُعَلِّق على هذه العبارات سناتور وليام فولبرايت في كتاب صَدَر له سنة ١٩٦٦ م بعنوان « غرور القوة » يقول : « أليس من المُثير حقًا أن الصوت كان صوت الرب ولكن الكلمات كانت كلمات ثيودور روزفلت وهنري كابوت لودجِ والأدميرال ماهان .. تلك الزُّمرة من (

الإمبرياليين العتاة) الذين أرادوا لأمريكا أن تقيم لنفسها إمبراطورية لمجرد أنهم اعتقدوا أن دولة كبرى قوية مثل الولايات المتحدة لابد أن يكون لها إمبراطورية » .

كان هذا تعبيرًا عن روح ذلك العصر الإمبرياليّ الرأسماليّ كما صاغَهُ ألبرت بفريدج عضو الكونجرس الأمريكيّ الذي قال : « يجب علينا أن نطيع ما تُمليه علينا دوافعنا وأن نغزو أَسْواقًا جديدة وأن نحتل أراضي جديدة إذا اقتضى الأمر » ؛ والسَّبب عند بفريدج كما يقول هو نفسه : « لقد كتب الله لنا ورسم في خطته أن الحضارات المتداعية والأجناس المتحلّلة ينبغي أن تندثر كلها لتفسح الطريق أمام الحضارة الأسْمَى التي أقامها أُنَاسٌ أكثر نُبْلًا وأكثر حيوية » . وطبعًا الذين هم أكثر نُبلا وحيوية هم الأَمريكيون والحضارة الأَسمى هي حضارتهم .

من الناحية السياسية والعسكرية كان على الأمريكيين أن يتعاملوا في الشمال الفلبينيّ مع قيادات الثورة الفلبينية ، على النحو الذى فصّلناه فيما سبق . أما في الجنوب فقد كانت هناك كتلة سكانية أخرى غالبيتها العظمى من المسلمين فيما عدا بعض القبائل الوثنية المتناثرة في الجبال . وكانت هناك سَلْطَنات مسلمة تهيمن على الجزر الجنوبية ، سلطنات بلغت من الشيخوخة والتَّرَهُّل مبلغًا كبيرًا ، والمجتمعات المسلمة نفسها أصابها إنهاك شديد بسبب الحروب المتواصلة مع الأسبان التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون .

في هذه الحروب استُنْزِفت قوى المسلمين ونضبت مواردهم وانتهى بها الأمر إلى حالة من الشلل أو العجز . كانت هذه المجتمعات قبل الاحتلال الأسبانيّ تتمتع بالحيوية والرخاء والأمن والازدهار الحضاريّ ، فأصبحت بعد الاحتلال الأسبانيّ تُعاني من الفقر والجهل والتخلف ، كان يَنْدُرُ وجود أُمِّيِّين في مجتمعات المسلمين فإذا بالأُمِيَّة تُصْبح القَاسم المُشْترك الأعظم .

وكان على الأمريكيين أن يتعامل وا مع هذه الكتلة السكانية بكل عقدها وحَسَاسياتها وميراثها الحافل بالصراع المرير مع الاستعمار الأسبانيّ .
وإذا كان لنا أن نَصِفَ حال المجتمعات المسلمة في جنوب الفلبين عند وَصُول القوات الأمريكية إليها ، بعبارة واحدة نقول أنها كانت حالة إنهاك وفقر وتَعَاسَة من كل الوجوه . ولم يكن أمامهم سوى خيار واحد وهو الاستسلام للقادم الجديد، الذي جاء وفي جُعبته كثير من الوعود بالرخاء والاستقلال والتقدُّم .

ويلفت نظرنا المؤرخ الفلبينيّ « قيصر أديب ماهول » إلى نقطة هامة في هذا المنعطف التاريخيّ المصيريّ للمسلمين ، فقد سَعَت حكومة الثورة الفلبينية في الشمال لدى المسلمين في الجنوب لكي يُشَكّلوا معًا جبهة مُوَحِّدة ضد الأمريكيين ولكن المسلمين رفضوا التعاون مع حكومة الثورة ؛ ذلك لأنهم يفتقدون الثقة في الفلبينيين المسيحيين نظرًا لتاريخهم الطويل في الانحياز إلى جانب المستعمر الأسبانيّ ضد المسلمين ، فقد حاربوا دائمًا في صفوف الجيش الأسبانيّ ضدهم .. وكان المسلمون يخشوْن المسيحيين إذا تمَكَّنُوا من السلطة أن يُعاملوهم نفس المعاملة العدائية التي وَرَثوها من الأسبان ، فقد اشتركوا جميعًا في قتل

المسلمين وإحراق بيوتهم ومزارعهم وتدمير سفنهم .

وبثَّ الأسبان فيهم روح الكراهية والعداء من خلال برامج التعليم والثقافة قُرونًا .. ومن أشهر المسرحيات وأكثرها شعبية في المجتمع الفلبينيّ المسيحيّ على مدار الزمن تلك المسرحية الأسبانية المسماة (مورو – مورو) ، التي يرسم فيها الأسبان صورة كريهة بشعة للفلبينيّ المسلم الفَظّ قَاطِع الرُّءوس الذي يتصرَّف بوحشية ضد الأطفال والنِّساء المسيحيات . وقد وضع الأسبان هذه المسرحية ورَوَّجُوا لها لتشجيع الفلبينيين المسيحيين على مواصلة الحرب ضد المسلمين.

فلم يكن عجيبًا أن يُبادل المسلمون هذه الكراهية بكراهية مثلها ، وهذا الاحتقار باحتقار مماثل ، ولم يكن احتقار المسلمين للمسيحيين بسبب استسلام هؤلاء وخضوعهم للمستعمر الأجنبيّ فحسب ، بل لأن هؤلاء المسيحيين كانوا أداة طَيِّعة في يد قوات الاحتلال لتمكينه من السيطرة على أراضي المسلمين ومصيرهم .

تحدث ضابط أمريكيّ إلى سلطان « سولو » بفخر عن ثورة الفلبينيين المسيحيين ضد الأَسبان وتشكيلهم حكومة في « لوسون » ، وأدرك السلطان أن صاحبنا هذا العسكريّ يجهل تاريخ الكفاح الإسلاميّ ضد الاستعمار الأسبانيّ فقال له : « أليس هذا هو ما فعله المسلمون خلال ثلاثة قرون ؟ .. لقد حاربنا الأسبان كل هذا الزمن لهدف واحد هو الحفاظ على حريتنا واستقلالنا » .

الأمريكيون ينكثون في وعودهم

وَثَق المسلمون في وعود الأمريكيين لهم بمستقبل أفضل وبمساعدتهم على تدعيم حريتهم واستقلالهم ، ولكن لم يكن الأمريكيون أهلًا لهذه الثقة، فقد فتحوا أراضي المسلمين كلها للمستوطنين المسيحيين المهجَّرين من الشمال ، وعملوا على عزل مُسْلمي الفلبين عن جيرانهم المسلمين في إندونيسيا والملايو ، وكانت سياسةً أحكم الأمريكيون تخطيطها وتنفيذها ، وهكذا نجح الأمريكيون فيما أخفق فيه الأسبان من قبل . فلما استقر الأمْر لهم في الجنوب بدأت البعثات التنصيرية من البروتستانتت تتدفق على المناطق المسلمة، وقد استوعبت أخطاء أسلافهم الجزويت الذين استخدموا العنف في تنصير المسلمين فلم يفلحوا.

اختفى زمن السلاطين الأقوياء وحَلَّ مكانهم حكام محليون كانوا في الماضي يتَّبِعُون السلطان ويُنَفِّذُون سياسته فإذا بهم يتحوَّلُون إلى أتباع للسلطات الأمريكية ، هؤلاء هم « الداتو » الذي أصبحوا يشكلون طبقة أرستقراطية من العملاء ، انعزلوا عن الشعب المسلم وتعاونوا مع سلطات الاحتلال ، وفي مُقَابل هذا يَتَلَّقْون دعمًا أمريكيًا يمكنهم من الاستمرار في السلطة والسيطرة على الشعب المسلم إلى جانب امتيازات أخرى كثيرة .

كانت الفلبين كلها تخضع لحكم عسكريّ منذ بداية الاحتلال الأمريكيّ سنة ١٨٩٨ م حتى سنة ١٩٠٠ م ، في هذا العام سمحت الولايات المتحدة بحكم مدني في لوسون وفيسايا ، ولكن استمر الحكم العسكريّ قائمًا في الجنوب المسلم حتى سنة ١٩١٣ م .
في تلك الفترة كانت تَهُبُّ في الجنوب انتفاضات مسلحة في أماكن متفرقة فيقابلها الأمريكيون بقمع عنيف : في سنة ١٩٠٦ قتلت القوات الأمريكية في « سولو » أكثر من ستمائة رجل وامرأة وطفل .

وفي «بدْ داهو» تمرَّد السكان المسلمون على ضريبة الرءوس التي فَرَضها الأمريكيون عليهم ، فأقام الأمريكيون لهم مذبحة في عهد الجنرال «ليونارد وود» وهو أول حاكم عسكريّ أمريكيّ ، وقد جرت حول هذه المذبحة أنهار من التحقيقات والتعليقات في الصحافة الأمريكية ؛ حيث قُتِل في هذه المذبحة ثلاثة آلاف مسلم .
تبلورت مطامع الرأسمالية الأمريكية في مشروع لتحويل جزيرة «مندناو» إلى مستعمرة زراعية كبرى لأمريكا، فأرض هذه الجزيرة هي أخصب الأراضي وأنسبها لزراعة أشجار المطاط .

ولم يكن خافيًا أن سياسة الحزب الجمهوريّ الحاكم في ذلك الوقت كانت سياسة امبريالية مُسَخَّرة لخدمة طبقة معينة هي طبقة كبار الرأسماليين ، وتعتمد هذه السياسة على التوسع الاستعماريّ وفَتح أسواق جديدة للصناعة الأمريكية والبحث عن مَصَادر رخيصة للمواد الخام ، وفي خدمة هذه السياسة كان القادة العسكريون يتطلَّعون إلى تحقيق مزايا استراتيجية تتيحها لهم قواعد عسكرية آمنة للأسطول الأمريكيّ في الشرق الأقصى .

وفي هذا الإطار ينبغي أن نفهم السياسة الأمريكية في الجنوب الفلبينيّ التي رَكَّزت على تفكيك المجتمعات المسلمة وضَرْب الهوية الإسلامية من خلال التَّنصير والتعليم والنظم الإدارية، وتشجيع الاستيطان المسيحيّ الكثيف حتى يتحول المسلمون إلى أقلية ضعيفة لا تُشَكِّل تهديدًا للوجود الأمريكيّ في المنطقة .

في أَوَّل الأمر عَقَدت سلطات الاحتلال الأمريكيّ اتفاقية مع سلطان سولو سنة ١٨٩٩م سميت اتفاقية «بيتس» يحصل السلطان وأتباعه من الرُّؤساء المحليين بمقتضاها على مرتبات شهرية من الولايات المتحدة نظير اعتراف السلطان بالسيادة الأمريكية ، وعلى هذا النَّمط عَقَدت سُلطات الاحتلال اتفاقيات مماثلة مع بقية النُّخَب الحاكمة في الجنوب الفلبينيّ .

وكانت هذه مجرَّد مرحلة مؤقَّتة، فَسُرْعان ما تغيَّر الوضع سنة ١٩٠٣ م تنفيذًا لتوصية الجنرال "ليونارد وود" ، حيث أقامت قوات الاحتلال نظامًا قبليًّا لرؤساء محليين يتبعون مباشرة الحاكم الأمريكيّ للمنطقة .

وفي هذا الصَّدد كتب « يونارد وود» خطابًا إلى صدِيق له إنجليزيّ يُقَارن بين خطته العبقرية في الجنوب الفلبينيّ ، وبين الأَوْضاع السائدة في مستعمرات بريطانيا بالملايو .. قال : « لقد اخترتم الاحتفاظ بالسَّلاطين والراجات ولكننا آثرنا نظامًا لتطوير قيادات قبلية محلية عديدة نمنحها بعض صلاحيات محدودة ولكن بدون حقوق إلهية مَوْرُوثة » .

كان الأمريكيون حديثي عهد بالاستعمار وبمعرفة الشعوب ، ولم يدركوا لأَوَّل وهلة أن تغْيير الأنظمة السياسية التي اعتاد عليها الناس قُرونًا عديدة ليس بالأمر الهيِّن ، خصُوصًا إذا كان للسلاطين هذه المكانة التي لِسَلاطين الفلبين في نفوس شُعوبهم ، فهؤلاء السلاطين كانوا – تقليديًا – ينتسبون إلى ذرية النبيّ محمد وتطلق عليهم « سلاسل الأنساب » لقب الأَشراف .

كان هذا على الأقل هو الاعتقاد السائد بين المسلمين ، ولا تستطيع الولايات المتحدة أن تُلْغيَ عقائد الناس بقانون ، لذلك اضطرت إلى إلغاء اتفاقية « بيتس » وأَبْقت على سلطان « سولو » ولكن بصفته رئيسًا دينيًّا لمسلمي الفلبين . وفي سنة ١٩١٤ م حدث تَطَوُّر سياسيّ آخر، حيث تخلَّت الولايات المتحدة عن الحكم العسكريّ المباشر وأنشأت حكمًا مدنيًّا في « مندناو » و « سولو » ، وكانت المنطقة في ذلك الوقت مقصورة على المسلمين ، فاعترفت بالقوانين الشرعية التي كانت سائدة من قبل .
لم تكن كل القيادات المحلية أتباعًا أَذِلَّاء لقوات الاحتلال ، فالتاريخ يذكر أن « داتو علي » تَزَعَّم أكبر مقاومة مسلحة في « كوتاباتو » ضد الأمريكيين استمرت سنتين ، من سنة ١٩٠٣ م إلى سنة ١٩٠٥ م ، وتمكَّنَت السلطات الأمريكية من محاصرته بفضل عميل لهم وسط المسلمين كان يَمُدُّهم بالمعلومات ، ذلك هو « داتوا بيانج » .
وحَدَث أن مَرِض « داتو علي » بالملاريا ، فهجم الأمريكيون على مَقَرِّه وقتلوه ، ثم ساد الهدوء بعد ذلك في « كوتاباتو » .

وحَصَل « داتو بيانج » على جائزته ، حيث أرسل الأمريكيون ابنه إلى مانيلا ليتعلم في المدارس الأمريكية ، أما هو فقد عُيِّن سنة ١٩١٣ أوَّل عضو مسلم في مجلس محافظة « كوتا باتو » كما عُيِّن عضوًا في الجمعية الوطنية . والحقيقة أن هذه الوظائف كلها مجرَّد وظائف شكلية بدون سُلطات ولا مسئوليات ، تُشير إلى اعتراف أمريكيّ بقائد مسلم في موقع سياسيّ ما ، ولكن أهم شيء في هذه اللعبة هو ما يترتَّب على هذه المَنَاصب من امتيازات مالية ، ونفوذ سياسيّ على المسلمين (طبعًا) .

كان "داتو بيانج" أكبر أصدقاء الأمريكيين بين مُسْلمي الجنوب ، دعّم السياسة الأمريكية

في توطين مسيحيي الشمال في «كوتاباتو» ومكنّهم من إنشاء مستعمرات زراعية هناك على حساب الممتلكات الخاصة بالمسلمين .
وبدأت مَوَاهبه تتجلى بين إخوانه المسلمين ، فكان إذا أشار بيده وهو يقول: "إنيميجو" فمعناها أن الشخص المقصود بالإشارة يُقتل على الفور ، وإذا قال "أميجو" فمعنى ذلك إعفاء الشخص من القتل .
وظهرت عليه علامات الثَّراء الفاحش نتيجة للامتيازات الاقتصادية الواسعة التي سمح الأمريكيون له بها ، فاستطاع أن يجمع أموالا طائلة من أرباحه التجارية ، وأصبح سنة ١٩٢٦ م يمتلك أكبر مَضَارب الأرز في المنطقة ، ومزارع بها ٤٢ ألف شجرة جوز هند ، إلى جانب آلاف الجاموس"كاراباو" وآلاف الهكتارات من أراضي الأرز . وبطبيعة الحال هذه ثروات لم يأت بها الأمريكيون من بلادهم إنما هي ثروات المسلمين وأموال المسلمين ، مكّنه الأمريكيون من الاستيلاء عليها واحتكارها لنفسه نظير ولائه وخدماته .

ويبدو أن الطمع في الثروة المنهوبة لا يقف عند حد، فداتو بيانج لم يدع فرصة لاقتناص المال من أي وجه ، حتى أنه بدأ يحصّل إيجارات على المباني المدرسية التي لا يملكها ، مما أغضب أصدقاءه الأمريكيين ؛ لأن هذه المدارس كانت مفتوحة لنشر التعليم والثقافة الأمريكية .

من هذه العيِّنة أيضًا في تاريخ الفلبين نجد "داتو سنسوات بلاباران" الذي تخصص في التهريب والقمار ، وهي أنشطة اقتصادية جديدة استُحْدِثت في العهد الأمريكيّ .
ظهور مثل هذه الشخصيات في المجتمعات المسلمة كانت نتيجة ما يُمكن أن نُسَمِّية بالاستعمار ناعم الملمس الذي جاء به الأمريكيون إلى جنوب الفلبين، مُقَارنةً بالاستعمار الأسبانيّ الخشن الذي اعتمد على الحديد والنار في تحقيق أغراضه.

والفرق أن الشعوب مع هذا الاستعمار الخشن تعرف عدوَّها وتُواجهه مباشرة بعنفٍ مماثلٍ، فالقضية الوطنية هنا واضحة لا لبس فيها. أما في الاستعمار ناعم الملمس؛ حيث يختفي بعيدًا عن المشهد لينهض عملاؤه من أبناء الشعب بتنفيذ خططه ورغباته، فإنَّ القضية تلتبس على الناس وعادة ما ينقسمون على أنفسهم وتَتَبَدَّد طاقة النضال عندهم . كانت المعادلة السابقة تشتمل على طرفين فاعلين فقط : هما الوطنيّ والعدو الأجنبيّ ، أما الآن فقد دخل طرفٌ ثالث فأفسد المعادلة ذلك هو "الخائن العميل من بيننا..!".

الجديد في الاستعمار الأمريكيّ ناعم الملمس أنه لا يعتمد فقط على القوة العسكرية وهي متفوقة ومتقدمة بلا شك ، ولكنه يعتمد إلى جانبها على الدِّراسة والبحث ، وعلى مبادرات من شخصيات ذكية استعان بها في تطويع المسلمين وإعادة صياغة حياتهم على أسس جديدة .
من هؤلاء شخصية كان لها بصمة بارزة في تاريخ الاحتلال الأمريكيّ لجنوب الفلبين ذلك هو « نجيب صليبي » ، كان طبيبًا في القوات الأمريكية اعتبارًا من سنة ١٩٠٠، وهو من أصل لبنانيّ كان يُجيد اللغة العربية وعلى معرفة بالثقافة العربية والإسلامية في المشرق

العربيّ ، عُيِّنَ في « مندناو » وسرعان ما أصبح له أصدقاء على نطاق واسع من الشخصيات الهامة في المنطقة . ساعده على ذلك مهنته وذكاؤه وحُسْن معاشرته ، ودعم هذا كله بتعلُّمه لغتين من اللغات المحلية الأكثر انتشارًا هما «الماجندناوْ » و « التاوسوج » .

استخدم صليبي قدراته اللغوية في ترجمة « الترسيلات » والقوانين المحلية إلى اللغة الإنجليزية ، فأتاح بذلك لعلماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين دراستها لأول مرة .
وسرعان ما اعترف به الأمريكيون خبيرًا بشئون مسلمي الفلبين . وفي سنة ١٩٠٣ عُيِّن وكيلا لشئون « الموروس » ، وفي سنة ١٩٠٥ أصدر أَوَّل دراسة علمية عن مسلمي الفلبين لتُنْشَر باللغة الإنجليزية ، وبذلك تأهَّل لوظيفة أول مدير للمدارس في محافظة « الموروس » .

فماذا يقول صليبي عن تطوير مسلمي الفلبين ؟

في سنة ١٩١٣ كتب مقالًا بعنوان "مشكلة الموروس" عَارَض فيه الفكرة الشائعة أَنَّ الموروس متوحِّشون ومتعصِّبون في الدِّين ، فهو يرى أن الموروس على العكس من ذلك ، عقيدتهم الدينية ضعيفة ولا يمكن أن يكونوا متحمِّسين أو متعصِّبين لدينهم كما يظن الآخرون .
وفي محاولة لإفهام الأمريكيين طبيعة الحياة التي يَحْيَاها المسلمون قال: « يملك المسلمون نظامًا على درجة كبيرة من الاستقرار ، وهو نظام إقطاعيّ لمجتمعات يحكمها حكام محليون هم الـ «داتو» ، هؤلاء الـ « داتو » يفترضون في أنفسهم أنهم خلفاء الله في الأرض وأنهم نُبلاء بالمولد ... أشراف تجري في عروقهم دماء النبوة كما تؤكِّد الترسيلات ، ولذلك يَدِينُ لهم الناس بالولاء والطاعة ...
ومادام « الداتو » لا يقاومون الأمريكيين ومادام الدين هشًّا في قلوب المسلمين فلن يكون سببًا في صراع بينهم وبين الأمريكيين ، ومادام المسلمون مُوَزَّعُون في قبائل كثيرة .. ولن يحدث أن يتَّحِدُوا على هدفٍ واحدٍ، لذلك يرى صليبي أن النظام القبائليّ مع الإسلام المطاوع يمكن توظيفهما لصالح الجانبي: الحكومة الإمبريالية والسُّلطات القبلية المحلية » .

يتابع صَليبي وصفه لسناريو المستقبل لهذه التركيبة السعيدة فيقول : « في هذا النظام يشعر المورو الفرد أَنَّه محميّ لا خطر يُهَدِّده .. وفي هذا المناخ يزدهر وتنمو ملكاته.. عندئذ يتحرك بشكل طبيعيّ لتقليد حضارة باهرة متفوقة (هي الحضارة الأمريكية » ، ربما بطريقة لاشعورية .. بذلك تتغير عاداته وأسلوب حياته تدريجيًّا .. بينما هو لا يدري أنه يتطوَّر .. ويكتسب الأفكار الأمريكية والطموحات الأمريكية يعني "أسلوب الحياة الأمريكية" ... إن مجتمعًا ذكيًا للمورو يقوم على إرشاده موظفون أمريكيون أكْفاء لاشك سيتمكن من تحقيق مستقبل أفضل .. وتبعًا للقانون الطبيعيّ للتطور سوف يرتفع تدريجيًا في سلم الرَّخاء والثقافة إلى المستوى الديمقراطيّ الذي تعيشه المجتمعات المسيحية الفلبينية» .

يأتي في سياق الشخصيات الهامة التي اعتمد عليها الأمريكيون في التعامل مع المسلمين « فرانك كاربنتر » وهو يتبنى أفكار صليبي ، فيرى أنه من العبث محاولة تنصير المسلمين أو كما سمَّاهم « المحمديِّين » .. وأن تطوير هؤلاء المحمدييِّن يكون أفضل من خلال مؤسسات الحكم القبليّ التي يهيمن عليها « الداتو » .

وليضع « كاربنتر » أفكاره الاستعمارية موضع التنفيذ ، شجع سلطان « سُولو » (سابقًا) على أن يبعث بابنته « تارهاتاكرام » لتتعلم في الولايات المتحدة ، ويبدو أن السلطان كان شديد الثقة في أصدقائه الأمريكيين فلم يُمَانع في ذلك .

فماذا يُرَاد لابنة السلطان أن تتعلم في الولايات المتحدة ؟
للإجابة على هذا السؤال نقرأ خطاب التَّوصية الذي بعث به كاربنتر مع الأميرة في رحلتها إلى أمريكا يقول للمعنيين:

« لا تحاولوا تنصير الأَميرة وإنما يكفي تعليمها المناقشة بمنطق قوي وعقلانية حتى تنتزع احترام رجال الدين المحمدييِّن ... عَلِّمُوها كيف تُنَاقش وتنتقد الأفكار الواردة في القرآن والكتب الأُخرى المقدسة عند المحمدييِّن وكذلك المناقشة في تاريخهم السياسيّ » .
ومن أكثر المتأثرين بآراء صليبي أيضًا «إدوارد إم . كودر» ، عمل كودْر سبعة عشر عامًا اعتبارًا من سنة ١٩٢٤ مديرًا للتعليم في ثلاثة محافظات إسلامية في الجنوب الفلبينيّ هي كوتاباتو ولاناوْ وسولو ، وكان مثل صليبي في اهتمامه بتعلّم اللغتين الأوسع انتشارًا وهما « الماجندناو » و « التاوسوج » .
ولإدوارد كودر تقرير هام أودعه آراءه في تعليم مسلمي الفلبين ونشره سنة ١٩٣٥ قال فيه :
« القيمة الأساسية لتعليم غير المسيحيين ترتكز على عاملين هما تنمية العناصر المُوَحَّدة لفئات المسلمين ورَبْطِهم بالثقافة الفلبينية من جهة وبثقافة الملايو بصفة عامة ، علما بأن العقيدة الإسلامية في « الملايو » ليست هي العقيدة المتعصبة في بلاد العرب » .
وقد قام كودر بنفسه بتعليم كوادر من طبقة النخبة المسلمة من الجيل الثاني الحاكم في المنطقة (يعني أبناء الداتو) . وكانت أبرز توجيهاته لتلاميذه أن يُفَكِّروا في عقيدتهم الإسلامية (كما ذهب كاربنتر من قبله) من خلال ما تعلَّمُوه من آداب وعلوم غربية ، أي من خلال النظرة التحليلية النقدية .

أدّت توجيهات كودر إلى إنشاء « جمعية مسلمي مندناو وسولو » سنة ١٩٣٢ ، وكانت جمعية محدودة العضوية تضم نخبة من تلاميذ كُودر بعد أن التحقوا بجامعة الفلبين في مانيلا . وفي سنة ١٩٣٥ م كتب « ساليبادا بنداتون » زعيم طلاب كودر يتحدث عن أهداف جمعيتهم فقال : « من أهدافنا ... تنمية قيمة التعاون مع القادة المسيحيين في الفلبين بين المسلمين » .

حاول هؤلاء الطُّلاب تحقيق أهدافهم من خلال وظائفهم وأعمالهم بعد أن أصبحوا محامين

وموظفين عموميين وسياسيين ... وتزوجوا من نساء مسيحيات وانغمسوا في حياة العاصمة وإن لم يَقطعوا صِلتهم بقواعدهم في الجنوب المسلم .

في سنة ١٩٣٥ م حَصَلت جُزر الفلبين على استقلال جزئيّ تحت وضع سياسيّ جديد أطلق عليه اسم « الكومنويلث » على وعد من الولايات المتحدة بالاستقلال خلال عشر سنوات . في تلك الفترة بلغ نشاط تهجير المسيحيين من الجُزُر الشمالية وتوطينهم في "مندناو" ذَرْوته ، وفي غُضونها تفجرت أحداث الحرب العالمية الثانية ، واحتلت اليابان جُزُر الفلبين بعد أن طردوا منها القوات الأمريكية ، التي عادت إليها مرة ثانية بعد إسقاط قنبلتين ذريتين على هيروشيما ونجازاكي .

في حرب التحرير مات أكثر من مليون فلبينيّ ، اشترك المسلمون فيها بأَعداد كبيرة من المقاتلين ، ودُمِّرت العاصمة الفلبينية «مانيلا» ، وتحولت الفلبين إلى خرائب وأنقاض ، ومع ذلك أَصَرَّ الفلبينيون أن يحتلفوا سنة ١٩٤٦ بالاستقلال وإنشاء جمهورية الفلبين .

قيصر أديب ماهول

وآثار حروب المورو

يرى المؤرخ الفلبينيّ قيصر أديب ماهول أنَّ كثيرًا من خصائص الشخصية المسلمة والمجتمعات المسلمة كما نراها اليوم تعود إلى الآثار العميقة التي خلفتها حروب «المورو » ، كما يرى أن كثيرا من مُشْكلاتهم الراهنة يصعب تفسيرها إلَّا في ضوء الفهم الصَّحيح لهذه الحروب وما صنعته في مجري تاريخهم ، وهو يُلخصِّ هذه الآثار فيما يلي :

أولًا : كان ازدهار مجتمعات المسلمين في الفلبين ومنطقة الملايو بصفة عامة يرجع إلى ازدهار تجارتهم البينية ومع البلاد القريبة كالصين والهند . وكان تدمير نشاطهم التجاريّ على يد الأسبان من أهم العوامل التي قلّصت استقلالهم ووضعتهم تحت رحمة حكومة الاحتلال الأسبانيّ في مانيلا.

ثانيًا : سُقوط بقية منطقة « الملايو » في أيدي الهولنديين والبريطانيين والبرتغال ، واحتكار هؤلاء المستعمرين للنشاط التجاريّ في المنطقة عمّق حصار المسلمين في الجنوب الفلبينيّ ، وحرمهم من الموارد والأسواق التقليدية التي اعتادوا على التعامل معها ، واضطرهم في النهاية إلى الانكماش والعزلة .

ثالثا : لا يزال أثر التهجير القصري للسكان المسلمين واضحًا إلى اليوم ، فقد لجأت السياسة الإمبريالية اعتبارًا من أواخر المرحلة الرابعة حتى نهاية المرحلة السادسة إلى التهجير القَسْري للمسلمين من مناطق معينة في جزيرة «هولو» وجزر "بالانجنجى" ونقل السَّامال برمّتهم في أواخر القرن التاسع عشر إلى جزيرة "لوسون" في الشمال وتنصيرهم ، ولا يزال بعض أحفاد هؤلاء المُهَجَّرين يتذكرون المآسي التي تعرض لها آباؤهم ، ولا يزالون يرددون بعض عبارات إسلامية كانوا يسمعونها من هؤلاء الآباء .

رابعًا : لم يفعل الأمريكيون شيئا يذكر لتحسين الأوضاع الاقتصادية للمسلمين رغم كثرة وعودهم . وكان التَّكالب على نَهْب الثروات الطبيعية في الجنوب المسلم هدفًا مشتركًا بين فئات ثلاثة : الاحتلال الأمريكيّ والساسة الفلبينيون والرأسماليون الفلبينيون والأمريكيون على السواء .

وكان هَمُّ الأمريكيين الأكبر هو فَتح أراضٍ عَذْراء لأنفسهم ولأصدقائهم ، وقد رأوا أن استقدام المستوطنين المسيحيين من الشمال إلى جزيرة مندناو المسلمة سيجعل المسلمين أقلية على المدى الطويل ، بحيث يمكن عندئذ إهمالهم وتجاهلهم . ولا يزال أثر هذه السياسة واضحًا حتى الآن ، وهو يُفَسِّر لنا سِرّ التخلف الاقتصاديّ والاجتماعيّ والفقر الشديد الذي تُعَانيه الأغلبية الساحقة من المسلمين مقارنة بالأغلبية المسيحية التي سبقتهم بمراحل كبيرة في

مجال التقدم والنمو .
خامسًا : قضى مُسْلمو الفلبين أكثر من ثلاثة قرون في حُروب مُتَّصلة مع الاستعمار الأسبانيّ ، ومن البديهيّ أن أُنَاسًا في حالة حرب دائمة لا يمكنهم أن يُحْسِنُوا تعليمًا أو ثقافة ، ولا يمكن إعطاء هذه الأُمور الأولوية التي تستحقها كما يحدث في ظروف الحياة الطبيعية .

وفي عهد الاحتلال الأمريكيّ كان الأمريكيون حريصين على نَشْر ثقافتهم لتتغلب على الثقافة الأسبانية التي سادت هناك أكثر من ثلاثة قرون ، فبدأوا بإنشاء مدارس للتعليم العام ، ووجد بعض المسلمين الفرصة سانحة أمامهم للحصول على تعليم جديد وإن كان على نطاق ضيق مقارنة بفرص المسيحيين ، وفي الحقيقة كان التعليم مقتصرًا على أبناء النخبة المحظوظة من المسلمين ، الذين اهتموا بدراسة القانون كخطوة لازمة للدخول في عالم السياسة والحكم ، فهكذا كانت توجيهات منفذو السياسة الاستعمارية لهم .

كان الحافز عندهم إذن هو تحقيق المصالح الشخصية والعائلية لِذَوِيهم ، وليس بالضرورة حماية المجتمعات المسلمة التي تَكَالب عليها الأعداء من كل جانب ، وكانت النتيجة أن هذه النخبة المتعلمة لم تكن إضافة إلى رصيد المسلمين في التّقدم ، بل كانت عبئا عليهم وخطرًا على مصالحهم لانحيازها إلى أعدائهم الطامعين .

سادسا : عاش المسلمون قُرونًا متحررِّين من الاستعمار الأَجنبيّ ولم يتعوَّدُوا الخضوع لحكم غير حُكْم المسلمين ، وظل دينهم وقيمهم الثقافية ومؤسساتهم الاجتماعية مختلفة عن بقية الفلبينيين الآخرين .

وقد نظر المسلمون إلى الحكومات الأسبانية والأمريكية باعتبارها حكومات غريبة ومعادية لدينهم وثقافتهم ومؤسساتهم ، ولأن الحكومة الفلبينية قد نشأت في ظل الاحتلال الأجنبيّ الذي احتضنها ودعمها في قمع حركات التحرير التي تفجرت عشية إعلان جمهورية الفلبين المستقلة سنة ١٩٤٦ م ، فقد اعتبر المسلمون هذه الحكومة الفلبينية حكومات أجنبية وامتدادًا طبيعيًا للحكومات الاستعمارية السابقة .

عَزَّزَ هذا الشعور عند المسلمين أن الحكومة الفلبينية اعتادت على إهمال الأوضاع الاقتصادية المتردية ، ولم تفعل شيئًا في سبيل تحسين الخدمات التعليمية أو الصحية للمسلمين .
وقد دأبت الحكومة الفلبينية تعبر عن شكها وعدم ثقتها المزمن تجاه المسلمين ، بإلصاق أي عمل إجراميّ يقع في أي مكان بالمسلمين دون دليل أو بينة ، واتخذت من هذه المزاعم تبريرًا لتكثيف دوريات الأمن ووضع حواجز التفتيش في جميع الطرقات بالمناطق المسلمة .

كل هذا دعّم إيمان المسلمين بأن الحكومة الفلبينية ليست إلا حكومة احتلال أجنبيّ معادية شأنها في ذلك شأن الحكومات الأسبانية والأمريكية السابقة. والأدلة التي يسردها المسلمون

في هذا المجال لا تقف عند حد ، نجتزئ ببعضها فيما يلي :

١ـ الحكومات الفلبينية المعاصرة لا تزال تشجع على هجرة المسيحيين من الشمال في لوسون وفيسايا إلى الجنوب ، وإغراءات الحكومات للراغبين في الهجرة لا حصر لها : فبمجرد انتقالهم إلى الجنوب يحصلون على منح مالية سخية ، وتيسر لهم السلطات المحلية تسجيل الأراضي التي تمنح لهم بالمجان ، وهي في أصلها كانت مملوكة للمسلمين ميراثًا من الأجداد والآباء ، ولكن ترفض هذه السلطات نفسها تسجيل أراضي المسلمين ، أو تماطل وتلجأ إلى التعقيدات الإدارية حتى تبتلعها وفود المستوطنين.

٢ – المشروعات الاقتصادية نادرًا ما تستخدم مسلمين بين العاملين فيها وتقْصر العمالة على المستوطنين المسيحيين .

٣ – هناك تَشَاور وتواصل واضح بين رجال الحكومة الرسميين وبين أجهزة التَّنصير في الجنوب ، وقد أشاع هذا المخاوف من نَوايا الحكومة في أوساط المسلمين ، وترسّخ عند المسلمين اعتقاد بأن الحكومة الفلبينية لا يرضيها إلا أن ترى المسلمين جميعًا قد أصبحوا مسيحيين .

ويُلاحظ المثقفون المسلمون أن الحكومة الفلبينية والفلبينيين المسيحيين بصفة عامة تشيع لديهم فكرة أن المسلم لا يمكن أن يكون مواطنًا صالحًا إلاَّ إذا أصبح مسيحيًّا مثل الغالبية العظمى من الفلبينيين .

والغريب أن هؤلاء الذين يعبرون عن هذا الاعتقاد أكثرهم قد تخَلَّى عن إيمانه بالمسيحية لأسباب عديدة ، لعلَّ أبرزها العلمانية الواضحة أو الماركسية المستترة ، ويبدو أن الأمر ببساطة كما يقول ماهول : « إنهم يشترطون على المسلمين مجرد أن يطرحوا دينهم جانبًا » .

يتتبع المؤرخ الفلبينيّ « قيصر أديب ماهول » أساليب المُبَشِّرين المسيحيين بين المسلمين في الجنوب ، فَيَعْرض لنقطة مبدئية يرتكز عليها التبشير وهي الأوضاع الاقتصادية المتردِّيَّة والفقر المدقع الذي يعيش فيه قطاع كبير من الشعب المسلم ، فالمُبَشِّرُون ينتهزون فرصة هذه الأَحوال التعيسة للمسلمين فيجعلونهم بين خيارين : إما الاستمرار في الفقر والعوز مع الإسلام أو الرخاء والطعام والمأوى مع المسيحية .

أما بين الفئات الأَحسن حالاً فهناك الإغراء بالمِنَح الدراسية للشباب ، ودعوة المثقفين إلى مؤتمرات وحلقات نقاش لإشاعة الثقافة المسيحية وبث الميل إليها .
ومن أَساليبهم في التبشير إلصاق تهمة التَّخلف المدنيّ والاقتصاديّ بالإسلام. ويتناولون شخصية رسول الإسلام بالنَّقد والتجريح ، ويُرَوِّجُون لما وَرَد في القرآن عن شخصية النبي عيسى عليه السلام ، ويفيضون في سيرته وفضائله ويغمرون الإعلام بالكتابة عنه على أمل

أن تطغى سيرته على سيرة النبيّ محمد عليه الصلاة والسلام ، ويعتبرون هذا مدخلا هامًّا من مداخل تنصير المسلمين .

وتستغل البعثات التبشيرية احترام المسلمين للأديان السَّماوية وللرسل والأنبياء السابقين جميعًا امتثالا لروح القرآن وتعاليمه ، وفي هذا يجد المسلمون أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه ؛ لأَنهم لا يستطيعون أن يردوا الإساءة إلى شخصية نبيهم بإساءة مثلها إلى شخصية المسيح عليه السلام .

ومن بين وسائلهم المستحدثة أَنَّهم يؤكدون اختلافهم عن البعثات التنصيرية السابقة ، فهم غير معنيّين بعملية التنصير وإنما كل ما يعنيهم هو أن يساعدوا غيرهم من البشر وأن يعملوا كشهود للمسيح ، والله وحده يعلم ماذا يعنون بهذه العبارة .

يُعَلِّق « ماهول » على حصيلة الجهود التنصيرية الحديثة كما رصدها في الجنوب الفلبينيّ فيقول : « الحقيقة أنهم يشيعون البلبلة الفكرية والاضطراب في نُفوس المسلمين وعقولهم ، ومن ثَمَّ بدأ الكثير منهم يَتَشَكَّكون في دينهم ، ويطرحون تساؤلات حول عقيدتهم التي لم يتح لهم من قبل دراستها أو فهمها ، إنهم قد لا يعتنقون المسيحية ولا يفكرون في ذلك ولكن تزعزت عقيدتهم وأصابهم الاضطراب والتمزق النفسيّ » ..

ثم يتساءل ماهول مستنكرًا فيقول : "يعجب الإنسان إذا كان هذا هو هدف المبشرين ومكسبهم ؟ ! فإذا كان الأمر كذلك حقًّا أفلا يعتبر هذا خرقًا شديدًا للمبادئ الأخلاقية !"

أعداء المسلمين:

يقول ماهول : "إن المُبَشِّرين المسيحيين هم بعض أَخطر أَعداء المسلمين في الفلبين ، ولكنهم ليسوا كل الأعداء الخطرين ، فهناك أعداء كُثْر آخرون ، بعضهم في داخل المجتمعات المسلمة نفسها" ، فمن هم هؤلاء الأعداء ؟ :

١ – رجال الأعمال من المستوطنين المسيحيين ، هؤلاء ينتهزون كل فرصة لإزاحة المسلمين من أراضيهم ، ويقومون بتشريدهم متآزرين في ذلك مع رجال السياسة .

٢– المستوطنون الذين يُزَاحمون المسلمين في أراضيهم ومدنهم وقُرَاهم ، ويُؤَلِّفُون عصابات إرهابية مسلحة ومدربة ومدعومة من السلطات الفلبينية ، يقومون بخطف الأفراد وقتلهم ثم إلقاء جثثهم في الطرقات لإثارة الرعب بين الآخرين ، كما يقومون بالسطو المسلح على بيوت المسلمين ومساجدهم ومدارسهم وإحراقها ، على سبيل المثال : أحرقت هذا العصابات المعهد الإسلاميّ في مدينة « مراوي » . ثلاث مرات ، يعيد المسلمون بناءه

فتحرقه عصابات المستوطنين مرة بعد الأخرى . وهي ضغوط مستمرة تضطر المسلمين للهجرة من بيوتهم ومدنهم ليشتريها المستوطنون بأبخس الأثمان .
وهكذا أصبحت مدينة زامبوانجا خالية من المسلمين وكانت في الماضي مدينة إسلامية عريقة في التاريخ ، ويعيش الآن سكانها السابقون في مخيمات خارج المدينة تشبه مخيمات اللاجئين الفلسطينيين لذلك تسمى « كامبوزامبوانجا » .

٣ – الموظفون الحكوميون الذين يَتَّبِعُون سياسة ثابتة مُعَادية للمسلمين ، فهم يتعمَّدُون تضييع حقوق المسلمين ويخصصون كل الخدمات للمستوطنين ؛ إذ يعتقدون أن واجبهم الحقيقي هو مساعدة المستوطنين المسيحيين فحسب ، وهي نفس السياسة القديمة التي تبناها رجال الإدارة في عهود الاستعمار الأجنبي كلها .

٤– المستشرقون وجماعات الباحثين الذين يقومون بجمع المعلومات عن المسلمين في جنوب الفلبين ، وهم مَزِيج من الخبراء الأجانب والدارسين المحليين يتعاونون جميعًا على هدف واحد وهو التجسس على المسلمين وزعزعة الاستقرار في مجتمعاتهم ، فمن خلال البيانات والأرقام الإحصائية والملاحظات السلوكية وتحليل الاستبيانات- يؤلفون قدرًا هائلًا من المطبوعات المنشورة على نطاق واسع ، تتخذ مظهر الدراسات العلمية المحايدة وهي في الحقيقة محاولات لدعم جهود المبشرين والسلطات الحكومية في تحويل المسلمين عن دينهم ، حيث تسود في هذه المطبوعات معلومات وأفكار تزعم أن تديّن المسلمين الفلبينيين ليس أكثر من قشرة هشة في نسيجهم الثقافيّ ، وأنه مليء بالخرافات والأساطير التي لا تليق بالإنسان المتحضر ومن ثَمَّ يسهّلون على المسلمين طرح دينهم جانبًا والتطلع إلى الدين الآخر الذي يساير التقدم والحضارة .

وفي هذا المجال يُرْصَد لنا محاولات على مستوى آخر تستهدف المثقفين المسلمين بصفة خاصة ، حيث تقوم جهات معينة بدعوتهم إلى ندوات ومؤتمرات تحت شعارات إسلامية ، وفي الحقيقة أن هذه المؤتمرات لا تعنى بأمور المسلمين ومصالحهم وإنما تثير الشبهات حول الإسلام وتلطخه بالتهم وتلقي التراب على أعين المسلمين فلا يستطيعون أن يروا حقيقة دينهم .

ينتقل قيصر أديب ماهول إلى أعداء المجتمعات المسلمة الذين يخرجون من أرحامها ، ولكنهم لا يقلون خطرًا عليها من الأعداء الخارجين بل ربما أخطر منهم ، ورغم أن «ماهول » يتحدث عن منطقة بعينها هي الفلبين ، إلا أن القارئ سوف يجد في حديثه عن هذه الشخصيات ملامح مشتركة مع شخصيات في مناطق أخرى من العالم المسلم يعرفها ويَأْلَف وجوه أصحابها ، من هذه الشخصيات :

أولًا- القادة السياسيون : يعتقد هؤلاء القادة أن من واجب شعب الفلبين المسلم أن يدعمهم لمجرد أنهم ولدوا من آباء مسلمين ، وهم في واقع الأمر يستخدمون الإسلام مجرد وسيلة لتحقيق مصالحهم السياسية ومصالح ذويهم ، وهم لا يتمتعون بأخلاق الإسلام بل لا يعلمون

عنه شيئًا ولا يقيمون وزنًا لمصالح مجتمعاتهم المسلمة .إنهم يعيشون بَوَجْهين ، وجه يتظاهرون به أمام المسلمين ووجه آخر تنكشف به حقيقتهم عندما يكونون في صحبة غير المسلمين ، فهنا يحرصون على أن يظهروا أمامهم في القول والعمل بأنهم لا يؤمنون بالإسلام ولا ينتمون إلى مجتمعه ، فهم متحضرون يشربون الخمر ولا يقيمون الشعائر الدينية . ويظنون أنهم بذلك يكسبون رضا كبار القوم ، وقد يسمح هؤلاء لهم ببعض المصالح الشخصية ، ولكنهم لا يكنون لهم سوى الاحتقار .

أما عندما يُواجهون المسلمين في أحاديثهم العامة فإنهم يتشدقون بأهمية الإسلام ويَتَباكون على حقوق المسلمين المُهْدَرة . والغريب في الأمر أن كثيرًا من الذين يستمعون إليهم يصدقونهم ، فالناس عادة غير مُؤهلَين للتمييز بين المخلص والمنافق.
ثانيًا – قد يكون لدى بعض هؤلاء القادة المسلمين مسحة من الانتماء الإسلاميّ ، ولكن بلغت نفوسهم وضمائرهم من الضعف إلى الحدّ الذي يجعلهم يفرطون في مصالح مجتمعهم في سبيل تحقيق مصالح عائلاتهم وذويهم .

ثالثًا –من بين هؤلاء القادة مَنْ سَاعَد الأَجانب والمستوطنين على الاستيلاء على أراضي المسلمين من خلال الرشوة والمداهنة .

رابعًا – ومنهم من يجمع أموال المسلمين بدعوى إقامة مشروعات وهمية لا تتحقق أبدًا ، ثم يحتفظون بالمال الذي جمعوه لأنفسهم .

خامسًا – بعض القيادات الدينية الذين يستغلون معرفتهم بالدين فيفرضون على المسلمين إتاوات يدفعونها نظير قيامهم ببعض الشعائر مثل الدُّعاء لموتاهم أو الصلاة عليهم .

كنت أستغرب هذا الكلام ، ولم أكن بالتالي لأقبله بسهولة لولا أنه وقع في خبرتي الخاصة دليل عليه سنة ١٩٦٤م عندما كنت في مانيلا ، حيث اطَّلعت بحكم مسئوليتي عن الجانب الثقافيّ في السفارة المصرية على تحقيق مع أَحد المبعوثين شكاه زملاؤه لأنه أساء إلى وظيفته وَرَاح يجمع نقودًا من المسلمين الفلبينيين في مقابل أداء بعض الشعائر ، وأنه يستغل البُسطاء من الناس في الإنفاق عليه باعتباره رجل دين مُبارك ، فقد اعتاد التظاهر بالمرض ويرقد في الفراش ؛ لأنه يَعْلم أن الناس فى منطقته إذا زاروا مريضًا مباركًا مثله يأتون له بالهدايا المالية والعَيْنية ، لذلك لم أعد استغرب ما ذكره « ماهول » بهذا الصَّدد .

سادسًا- من بين المسلمين فئة من الرأسماليين لا يتورعون عن استغلال العمال الفقراء ، يحتكرون جهودهم في العمل بالمصانع لمضاعفة ثرواتهم ثم يبخسون أجورهم فلا يحصلون إلا على الفتات .

سابعًا- ومن بين المسلمين من يعمل جواسيس للأجانب فيخترقون الجماعات والأنشطة ويكتبون عنها تقارير .

ثامنًا- وهناك نوع من المسلمين ليسوا أعداء للإسلام عن فكر وتدبير وإنما هم بالغفلة والتراخي يقوّون أعداء الإسلام على المسلمين ، يعرفون الظلم ولا يتصدّون له وهو في مقدورهم ، ولكنهم يؤثرون السلامة ويقولون ليس هذا من شاننا .

تاسعًا- من المسلمين كثيرون لا يبذلون أقل جهد في فهم حقائق دينهم ، وهم بموقفهم السلبيّ يضيفون أرقامًا جديدة تعزز وجهة نظر الباحثين والمتجسسين الذين يدَّعون بأن المسلمين إيمانهم العَقَديّ هش ، وأن المسلمين الحقيقيين في الفلبين عددهم قليل.

عاشرًا- هناك المتواكلون على الآخرين في الرزق يستسهلون التسوُّل فلا يقومون بأي عمل يرتزقون منه لأنفسهم ولأُسرهم .

وهنا نشعر بأن « قيصر أديب ماهول » وكأنه يصرخ فيقول : « لا بد أن يعي المسلمون في الفلبين أن مجتمعاتهم تواجه خطر الاندثار ، فهم يُقتلون كل يوم على يد القوات المسلحة ورجال الأمن والمليشيات الإرهابية من المستوطنين الذين تدعمهم السلطات الحكومية بالسلاح والتدريب والمال ، وتشهد المجتمعات المسلمة يوميًّا اختفاء عشرات الأفراد بلا عودة ، ويُدْفَعُ خارج القرى والمدن الآف المسلمين إلى العراء فيصبحوا لاجئين إلى الأبد ، وتأتي فرق التبشير لتستغل كل هذه الأوضاع التعيسة في تنصيرهم ...
ومع مظاهر التدمير المنظم الواضح لمجتمعات المسلمين تدَّعي الحكومة الفلبينية – كاذبة – أنه لاحول لها ولا قوة ، وأنه لا سلطان لها على العصابات المسلحة ... » .

ويتساءل « ماهول » في النهاية : " هلى يريد المسلمون البقاء كمسلمين أم أنهم مستسلمون للانقراض ..؟! " .

القومية المورواوية:

في السَّنوات التي تَلَت انتهاء الحرب العالمية الثانية استأنفت الحكومة الفلبينية نشاط التهجير والاستيطان في الجنوب المسلم اعتبارًا من سنة ١٩٤٨ .
فَتَدَفَّقت أعداد المستوطنين بكثافة ملحوظة نحو «مندناو» لتستقر في " كوتاباتو" و « بوكيدنون » و « دفاو » و « زامبوانجا دلْ سور » و « أوجستا » و « لاناوْ دلْ نورتي » ، زحف المستوطنون على أراضي كان يمتلكها المسلمون ويزرعونها من مئات السنين ، وهكذا استُؤنف الصراع بِحدّة حول مِلْكية الأرض .

كان المسلمون حينذاك قد أَصابهم الوَهَن بسبب الحروب المتواصلة والعُزْلة الطويلة ، فاستطاعت السلطات الفلبينية إخراجهم من أراضيهم بالحيلة مرة وبالغشّ والخديعة مرات كثيرة ، واشترك في هذه العمليات كثير من المستوطنين ورجال الأعمال الأجانب ، وقد تعاون

معهم موظفون فاسدون ونخبة فاسدة من القادة المحليين .

فلما شعر المسلمون بأَنَّهم قد أصبحوا غرباء في وطنهم مُهَدَّدون في حياتهم وأرزاقهم ظهرت ثورة مُسَلَّحة خلال الخمسينات قوامها أناس بُسَطاء فقراء بقيادة شاب ثائر يُسَمَّي كاميلون ولذلك سُمِّيت بانتفاضة كاميلون ، كانت ثورة شعبية تحمل رسالة دينية واضحة أسهمت في إحياء الوعي الإسلاميّ ومَهَّدت لبلورة قومية مُواوية متماسكة .

تسمية المسلمين في الفلبين باسم « مُوروس » هي تسمية أسبانية وقد عرفنا أصلها عندهم ، وكلمة مورو في الثقافة الأسبانية الفلبينية تعني شخصية بشعة تمتزج فيها مَعاني المُتَوَحِّش والسَّفاح والمُهَرِّب والمُخَادع . وقد أشرنا إلى المسرحية الأسبانية الشهيرة في الفلبين « مورو مورو » التي تصور قصة هزيمة قُطَّاع الطرق المُسْلمين الأشرار بواسطة المسيحيين الأبطال .
ولكن في عقد السِّتينات استخدمت القيادات الثورية للمسلين نفس اللفظ بعد أن خَلعت عليه دلالات نضالية جديدة، ليصبح رمزا إيجابيًّا يمثل الهوية الجمعية لمُسْلمي الفلبين.

ماركوس وسياسته تجاه المسلمين

فاز « فرديناند ماركوس » في انتخابات الرئاسة الفلبينية وتولَّى السُّلطة في يناير عام ١٩٦٥ ، كان قد أفرط في وعوده الانتخابية للجماهير ، وبشَّر بعهد جديد ينْصِف فيه الفقراء ويقضي على الفساد ويُحَرِّر الإرادة الوطنية من التبعية للقوى الأجنبية ، ولكن تبخرت وعُود « ماركوس » يومًا بعد يوم ، فبدلًا من تحرير الفلبين من القواعد الأمريكية ومن الحلف الأمريكيّ لجنوب شرق آسيا- تَمَادى في تنازلاته ؛ فورّط الجيش الفلبينيّ في حرب فيتنام ، الأمر الذي لم يستطع سَلَفُه الرئيس مَاكَاباجال فِعْلُه. فعندما قدم اقتراحًا إلى البرلمان للسَّماح للقوات المسلحة أَنْ تشترك في الحرب الفيتنامية ثارت الجماهير ضد المشروع ، وقضت عليه ، ولكن مَاركوس فَعَل أكثر من ذلك ، فقد وَافق على طلب الأَمْرِيكيّين أن يتحول الجيش الفلبينيّ إلى مجرَّد قوات مسئولة عن الأمن الداخلي فقط ، حيث يقوم الأسطول الأمريكيّ السَّابع والسِّلاح الجويّ الثالث عشر بالدفاع الخارجيّ عن الفلبين .

وفي عهد ماركوس تفَشَّى الفساد حتى بلغ قمة السلطة ، وأصبح « ماركوس » وزوجته إميلدا متهمان بسرقة مليارات الدولارات وإيداعها في حسابات سِرِّية خاصة في البنوك الأجنبية ، وفي أواخر فترة رئاسته الأولى كانت الأوضاع الاقتصادية والأمنية في البلاد قد شهدت تدهورًا شديدًا .

فلما اقترب موعد انتخابات جديدة للرئاسة عام ١٩٧١ ، أدرك ماركوس أنه قد استهلك رصيده عند الشعب وأنه لا أمل له في البقاء في السلطة فترة جديدة عبر صناديق الانتخابات ، فقام بانقلاب ضد الدستور بمساعدة أنصاره في الجيش وأغلق البرلمان وأعلن الأحكام العسكرية وحكم البلاد حكمًا استبداديًا مطلقًا ، ثم أخذ ينكل بمعارضيه ويطارد الأحرار ، ولكي يصرف الأنظار عن جرائمه صَعَّدَ الصِّراع المُسَلّح ضد المسلمين في الجنوب إلى حرب شاملة .

كان « ماركوس » قد أَوْعَز إلى أنصاره في الجيش سنة ١٩٦٨ بتشديد الحصار وتصعيد العمليات العسكرية ضد المسلمين في الجنوب ، فقام الجيش بمجزرة مُرَوِّعة بين الأهالي وطَوَّقَ مناطق أخرى فمنع إمدادات الطعام والدواء عنها ، وكانت منطقة مستنقعات موبوءة بالبعوض والملاريا .

ولذلك صَرَّح قائد القوات الفلبينية قائلًا : « إنَّ الذين لم يقتلهم الجيش سنقضي عليهم بالملاريا » .
ويرى المراقبون أن توقيت المجزرة وهذا الحصار والاستفزاز كان مخطّطًا لتبرير الانقلاب الدستوريّ الذي قام به ماركوس .
عَمَّقَت هذه المجزرة مشاعر الغضب والثورة عند المسلمين الفلبينيين ، كما لفتت انتباه العالم المسلم في الخارج إلى الأوضاع المأساوية التي يعيشها مسلمو الفلبين .

صَاحَبَ هذا ظهور نمط جديد من القيادات الثورية الشابّة المؤهلة تأهيلًا جامعيًا جمعت الشباب الثائر في حركة مقاومة مُوَحَّدة باسم « الجبهة الوطنية لتحرير مُورو » بقيادة « نور مُسواري » .
انتشر العنف وسادت الاضطرابات بشكل غير مسبوق خلال الشُّهور التي انتهت بانتخابات مزورة لسنة ١٩٧١ ، وتصَاعدت أرقام الضَّحايا وتفاقمت الأزمة الاقتصادية في الجنوب بين المسلمين والمستوطنين المسيحيين.

وقد وَصَف أحد المُراقبين الذين شاهدوا الأحداث قال : « لقد أصبح باب العنف مفتوحًا أمام الجميع فرأينا مسلمين يحاربون مستوطنين مسحيين ، وقوات حكومية تحارب المسلمين ، وجيوشًا ومِليشيات خاصَّة لبعض رجال السياسة تُحارب الفلاحين المسلمين والمسيحيين ، وميليشيات أخرى مُسْتَأْجَرة تحارب القوات المسلحة الحكومية ، وكانت أصابع « ماركوس » وعملاؤه في المخابرات وراء هذه الفوضى الضَّاربة في الجنوب ، وكان الهدف من وراء كل هذه الفوضى أن تكون مبررًا لفرض قوانين الطوارئ العسكرية التي أعلنها ماركوس ، فلما أحكم قبضته على السلطة والجيش وتخلص من جميع القوى السياسية المعارضة لنظامه- وجد أنه في مركز قويّ يسمح له بمعالجة مشكلة المسلمين بالطريقة التي يريدها » .

في سنة ١٩٨٣ اجتمع في كانبرا -العاصمة الفدرالية باستراليا- مجموعة من الخبراء بالشَّأن الفلبينيّ كان بينهم الأستراليون والفلبينيون والأمريكيون ، جاءو إلى مؤتمر ينظرون فيه إلى الموقف الراهن من شتّى جوانبه السياسية والاقتصادية ومحاولة استشراف مستقبل الفلبين بعد ماركوس ، على اعتبار أن نظام ماركوس قد بلغ من العقم والتردّي درجة أصبحت بها نهايته محتومة .

كنت في كانبرا حينذاك فتابعت أعمال المؤتمر عن كثْب ؛ وأذكر أن من أهم ما قُدِّم من أوراق- بحث للخبير الاستراتيجي "آر. جي. ماي" كان في الحقيقة دراسة مستفيضة عن سياسة "ماركوس" تجاه المسلمين في الفلبين فوضعها في ثلاثة مستويات أوْ ثلاثة مراحل .

وقد وجدْتُ أنها تتفق في أكثر جوانبها مع دراسات أخرى اطّلعْتُ عليها خارج هذا المؤتمر . فما هي هذه المستويات الثلاثة ؟ :

المستوى الأول:

السياسة التي اتبعها ماركوس في هذا المستوى كانت مجرد امتداد لمحاولات سابقة في إطار فكرة تقليدية افترضت فيها الحكومة الفلبينية أن الاضطرابات في الجنوب ناجمة عن حرمان نسبيّ بين المسلمين ، ومن ثَمَّ على الحكومة أن تحاول تخفيف هذا الحرمان خلال برامج تنمية اجتماعية واقتصادية مع تنازلات محدودة لتحقيق بعض المتطلبات الدينية والثقافية للمسلمين .

هذا الاتجاه لم يكن – كما أشرنا – سوى نسخة كربونية من سياسة حكومة " ماكاباجال" وما قبلهاابتداء من سنة ١٩٥٧ .
تقرَّرت هذه السياسة بعد صدور تقرير لجنة من الكونجرس الفلبينيّ للبحث في مشكلة الموروس، وكان أحد أعضائها هو الزعيم الفلبينيّ المسلم "سناتور أحمد دوموكاي أَلُنْتو" .

ولتنفيذ توصيات اللجنة أنشأت الحكومة في ذلك الوقت هيئة خاصة للاندماج الوطنيّ، وقد اعتقد «سناتور ألنتو» أن إنشاء هذه اللجنة يعتبر كسبًا عظيمًا للمسلمين ، حيث كان من أهم أهدافها المنصوص عليها: "القيام بإصلاح اقتصاديّ واجتماعيّ وسياسيّ لغير المسيحيين في الجنوب ، لتحقيق اندماج حقيقيّ وكامل ودائم لجميع الأقليات المحرومة في النسيج الوطنيّ العام للمجتمع الفلبينيّ" .

ولكن هذه اللجنة التي تحمَّس لها سناتور ألنتو في أَوَّل الأمر لم تُحَقِّق شيئًا يُذكر طوال حياتها التي استمرت ثمانية عشر عامًا ، حيث أُلغيت سنة ١٩٥٧ . والحقيقة أن المسلمين منذ البداية لم يَسْتريحوا إليها ولم يستقبلوها بحماس بل عبَّروا عن عدم الثقة في مصداقيتها. والسبب عندهم أنها لم تُخاطب مشكلات المسلمين مباشرة ولم يرد فيها ذكر المسلمين، بل كانت موجهة حسب عنوانها إلى "الأقلِّيات الوطنية " وقد رأى المسلمون أن في هذا تمييعًا لقضيتهم ، وتوجّسوا خيفة من أن تكون وسيلة لطمس هويتهم الإسلامية .

تَلَى ذلك في عهد «ماركوس» محاولات أخرى مماثلة، حيث قَدَّمت لجنة برلمانية للأقليات سنة ١٩٧١ تقريرًا عن الأوضاع المتردِّية في الجنوب وحددت للصراع الجاري هناك سببين أساسيين هما: الهجرة الاستيطانية إلى الجنوب والاستيلاء على أراضي المسلمين ولكن هذه اللجنة كسابقتها لم تثمر أيّ تغيير في السياسة العامة للدولة حيث ظلَّت فكرة الإدماج والتنمية تسيطر عليها .

وفي سنة ١٩٧٣ أعلن ماركوس مجموعة من الإجراءات قال عنها المُعَلِّقُون أنه أراد بها كسب وُدّ المنشقّين المسلمين ، والحقيقة أنها كانت مجرد وعود فارغة لكسب الوقت . ولا بأس من الإشارة إلى بعض ملامح هذه الإجراءات لأننا سنجدها تتردد بأشكال مختلفة في جميع مراحل سياسة ماركوس تجاه المسلمين.

شملت هذه الإجراءات إلى جانب الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية تفصيلات جديدة مثل إنشاء بنك "الأَمانة الإسلاميّ"، وإلغاء الحظر الذي كان مفروضًا على تقليد تاريخيّ في تجارة المقايضة بين مسلمي الفلبين وإخوانهم في جزيرة بورنيو الإندونيسية، وإنشاء معهد للدراسات الإسلامية في جامعة الفلبين ، والاعتراف بالأعياد الإسلامية والسَّماح بتقنين الأحكام الشرعية في المعاملات بين المسلمين .

ولكن – كما أشرنا – لم يتم تحقيق شيء من هذا كله حتى سنة ١٩٧٧ م. وخلال الفترة من

١٩٧٣ إلى ١٩٧٧ كانت تظهر أسماء هيئات حكومية بدعوى إعادة بناء وتنمية جنوب الفلبين ، أو بدعوى تنسيق جهود هيئات أخرى معنية فقط على الورق.

أُنْشِئت بعد ذلك هيئات جديدة تحت أسماء: « إدارة تنمية مندناو » و « البرنامج الخاص للمساعدة في إعادة تأهيل المطرودين والمشردين » ، ثم ألغيت وحل محلها هيئة باسم « إدارة تنمية جنوب الفلبين » وُكِّل إليها ما سمِّي بالنمو المتوازن لجنوب الفلبين ، لتحقيق الاستقرار السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ .

يذكرني في هذا بالنكتة المشهورة عن الأستاذ يحيى حقي الأديب المصريّ المعروف والتي اتخذ لها عنوان "إدارة عموم الزّير" ... ! ويبدو أن ماركوس كان ينشئ إدارات لا عمل لها سوى أن تضم بعض مُوَظَّفين مرتزقة من أتباعه ، كمنح من النظام على أداء خدمات خاصة للزعيم من ناحية ، ولكي يشغل الإعلام ببرامج ومشروعات وهمية تُوحي باهتمام ماركوس بالشئون العامة ومصالح الشعب المسلم بصفة خاصة من ناحية أخرى .

كنتُ في زيارة لتونس ولاحظت من مُتابعتي لأَخبار التلفاز أن المجاهد الأعظم [الرئيس بو ررقيبة] كان يفتتح كل يوم مشروعًا اقتصاديًا مهمًّا في البلاد ، فذهبت في أحد المرات لأَرى ماذا يفتتح الزعيم في الموقع الذي حدَّدَهُ التلفاز ، فلما وصلت هناك في اليوم التالي وجدت محل بقالة جديد ، فماركوس ليس فريدًا في نوعه .

لم ينتهِ مسلسل إدارات ماركوس الإصلاحية ، فبين سنتي ١٩٧٩ و ١٩٨٠ صَدَر قانون موجه إلى التنمية الاقتصادية فقط وأُسْنِدت المهام الاجتماعية الأخرى إلى الإدارات الحكومية المتخصصة ، وتحوَّل الإشراف على هذه العملية من مكتب رئيس الجمهورية إلى وزارة جديدة سُمِّيت وزارة الاستيطان ، اخترعها ماركوس ونَصَّب زوجته الجميلة « إميلدا » وزيرة عليها ، وقد حَدَث هذا إثر زيارة لزوجة الرئيس إلى الكيان الصهيونيّ في إسرائيل .

وفي سنة ١٩٨٠ أنشأ ماركوس برنامجًا لإعادة تأهيل المقاتلين السابقين في "جبهة تحرير مورو " لإغرائهم على اعتزال القتال والتخلي عن الجبهة ، وَوَعَد بمساعدات مالية حكومية لإنشاء مدارس ومساجد للمسلمين واعتماد خاص للتمويل بلغ ٢٥ مليون بيسو ، وأنشأ لذلك مَا يُشبه وزارة خاصة بشئون المسلمين ولكنه نصَّب عليها أحد المرتزقة من أتباعه هو الأدميرال « روموليو إسبالدون » .

وكانت الحصيلة كالعادة "طحنٌ كثير ولا دقيق" ، المهم أن تتواصل الفرقعات الإعلامية تُعْلن عن مشروعات واهتمام بمشكلات المسلمين ، وهي في التحليل النهائيّ مجرد إنجازات إعلامية ومراوغات سياسية ، أما الذي يجري على أرض الواقع كل يوم فضغوط عسكرية إرهابية وحصار اقتصاديّ متواصل على أمل أن ييأس المسلمون ويستسلموا في النهاية لما يفرضه ماركوس عليهم من حلول بهلوانية ، ويرضون بأي تسوية ظالمة يتطوَّع بها .

وهذا هو نفس التكتيك الذي كان يتبعه "سلوبودان ميلوسفيتش" مع البُشْنَاق في حرب البوسنة ومع الألبان في حرب كوسوفا ، وهو نفس التكتيك الذي تتبعه إسرائيل مع الفلسطينيين والذي بلغ قِمَّة بطشه في عهد شارون . وليس في الأمر غرابة فإن الفلبين لم تخل في عهد ماركوس من خبراء إسرائيليين لمساعدته في القضاء على حركة المقاومة الإسلامية المسلحة ، وسنرى أثر هذه السِّياسة الصهيونية أَوضح في مجال الاستيطان وفي محاولة ضَرْب فصائل حركة المقاومة الإسلامية بعضها ببعض.

قامت «إميلدا ماركوس» بزيارة الكيان الصهيونيّ ورجعت إلى الفلبين ومعها مجموعة من الخبراء الإسرائيليين ، حيث أُنْشِئَت لها وزارة خاصة بالاستيطان كما أشرنا ، وكان أوَّل عمل قامت به هو مصادرة مزيد من أراضي المسلمين وتخصيصها للمستوطنين ، وقد بلغت الأراضي المصادرة في عهد ماركوس ٩٠٠ ألف هكتار أُنتزِعَتْ قهرًا من المسلمين ، واعتمدت الحكومة مَبَالغ كبيرة لتهجير أَعداد جديدة من المستوطنين المسيحيين إلى الجنوب .

وأقامت مستوطنات لهم على غرار المستوطنات الإسرائيلية في فلسطين المحتلة، ومن جَرَّاء هذه العمليات بلغ عدد المسلمين المُشَرَّدين حتى سنة ١٩٨٣ أكثر من مليونيْ شخص، واختفت معالم الحياة الإسلامية من بعض المدن مثل مدينة إيليجان بعد أن أصبحت الغالبية السكانية من المسيحيين المستوطنين، وهذا بالضَّبط ما كانت حكومة ماركوس تسعى إلى تحقيقه أن يُصبح المسلمون أقلية في الجنوب فبذلك تنتهي مشكلتهم التي تؤرق نظامه.

كذلك أُنْشِئت في عهد ماركوس منظمة إرهابية مسلحة ومُدَرَّبة من متطرفي المستوطنين، وبالتعاون مع هذه المنظمة تصاعدت العمليات العسكرية الوحشية للجيش ولقوات الأَمن ضد المسلمين ، فكان حَصَاد جرائم الحرب حتى سنة ١٩٨٣ بين المسلمين كالآتي:

١ – قتل ١٣٠ ألف مسلم من المدنيين .
٢ – اغتصاب واختطاف ستة آلاف امرأة مسلمة .
٣ – تشريد مليونيْ مسلم من ديارهم ووطنهم .
٤ – مصادرة ٩٠٠ ألف هكتار من أراضي المسلمين .
٥ – إحراق ٣٠٠ ألف منزل و ٦٠٠مسجد و ٢٠٠ مدرسة ومائة قرية .

المستوى الثاني:

في هذا المجال تجلَّت عبقرية ماركوس في تطبيق المبدأ الاستعماريّ فرّق تَسُدّ ، فقد استغل « ماركوس » الاختلافات الفكرية بين قادة فصائل المقاومة وما بينهم من اختلافات لغوية وإثنية ومذهبية ، كما استغل – من ناحية أخرى – عدم الشعور بالأمن عند المستوطنين المسيحيين في الجنوب ، وذلك لتحقيق هدفين رئيسيين:

الأول هو تمزيق جبهة المقاومة الإسلامية وإضعافها، والثاني هو إشغال المسلمين المدنيين بإرهاب محليّ منظم يَصْعُب التَّعَرُّف على مصدره، يستنزف مجتمعاتهم ويُرَوِّعهم ويفقدهم الثقة في قياداتهم الثورية التي تعجز عن حمايتهم ضد الإرهاب.

لابد أن نعرف هنا أن كتلة السكان في الجنوب الفلبينيّ تبلغ عشرة ملايين نسمة ، بينما يبلغ عدد المستوطنين المسيحيين حاليًا أكثر قليلاً من مليونين ، وترجع خطورتهم إلى عدة أُمُور أهمها : أن هؤلاء المستوطنين يُدركون أنهم يعيشون على أرض مغتصبة من أصحابها وعليهم أن يَبْقُوا مستذئبين حتى لا تفاجؤهم صحوة النِّعاج وهم نائمون .. وأنهم مُتغلغلون بين المسلمين ويعرفون مواطن الضعف في مجتمعاتهم ، كما أنهم من الناحية الاقتصادية أحسن حالًا .. وأهم من كل هذا: أنهم يستندون في وجودهم وسيطرتهم على دعم قوي من السلطات المحلية وقوات الأمن والجيش الفلبينيّ .

وقد استطاع رجال ماركوس إغراء فريق من هؤلاء المستوطنين المتطرفين لتكوين عصابات قام الجيش بتدريبها وتزويدها بالمال والسلاح. وهكذا بدأت تظهر في أوساط المدنيين المسلمين عمليات خطف أفراد واختفائهم ، وقتلى جثثهم ملقاة في الشوارع ، واغتصاب نساء وحرق منازل ومزارع ، وعرف المسلمون أن هناك منظمة إرهابية مسيحية أطلقت على نفسها اسم منظمة « إِليجا » هي التي تقوم بهذه العمليات .

من ناحية أخرى بدأ ماركوس تكتيكًا جديدًا لضرب فصائل المقاومة بعضها ببعض ، واستخدام وسائل الإعلام في حملات مكثفة لتزييف الأخبار ، وإظهار المسلمين أمام أنفسهم وأمام الرأي العام الفلبينيّ والعالميّ ، بأنهم يفتقرون إلى الوعي والمشاعر الوطنية ، وأنهم غير موحدين على هدف معين ، وليس هناك في ساحة المقاومة سوى مجرمين و إرهابيين خارجين على القانون ، وإنه ليس بين قيادات هذه المقاومة من يمثل المسلمين تمثيلًا حقيقيًّا .

بدأ ماركوس يجني ثمار تكتيكه الجهنميّ ، محاولاً خَلْق واقع جديد على الأرض يُؤَكِّد به مَزَاعمه الإعلامية من خلال سيناريوهات ومناورات سياسية متنوعة .

فبينما كان مؤتمر وزراء خارجية دول المؤتمر الإسلاميّ منعقدًا سنة ١٩٧٤ في محاولة للجمع بين الحكومة الفلبينية و جبهة تحرير مورو الوطنية على مائدة المفاوضات ، أعلن ماركوس إنشاء مجلس استشاريّ لقيادات المسلمين تحت رعاية النظام ، وفي نفس العام اجتمع مؤتمر في مدينة « راوي بمندناوْ احتضنته الأُسر الحاكمة التقليدية من سلالة السلاطين والداتو وبتمويل من حكومة ماركوس ، وأعلن المؤتمر بالإجماع الثقة الكاملة في قيادة الرئيس ماركوس ، كما أعلن بنود السياسات التي يُوصي بها لمعالجة المشكلات التي يعاني منها المسلمون ، وكلها تَصُبَّ في مقولة الإصلاح الاجتماعيّ والاقتصاديّ .

وفي العام التالي ١٩٧٥ م وبينما كانت المفاوضات جارية في مدينة جدّة بالمملكة السعودية بين ممثلي الحكومة الفلبينية و جبهة تحرير مُورو ، في ذلك الوقت كان ماركوس يُرَتّب لمناورة جديدة حيث أجرى في"زامبوانجا" محادثات مع مجموعة من القيادات المسلمة اختار أعضاءها بنفسه ، وأوعز إليهم أن يعلنوا معارضتهم للمطالب التي تطالب بها الجبهة ، ومعارضتهم لأجندة المحادثات التي اقترحها وزراء خارجية المؤتمر الإسلاميّ .

في هذه المرة أيضًا كان رجال ماركوس يحاولون حشد أكبر عدد من العناصر المحافظة في القيادات المسلمة في صفِّه ، وذلك بغرض التشويش على الجبهة وإثبات أنها لا تُمَثِّل الشعب المسلم ، ومن ثَمَّ يُمكن تجَاهلها أو إخراجها من المشهد السياسيّ، ولكي يُعَزِّز هذا الاتجاه شنَّت أجهزة إعلامه حملة دعائية مسعورة ضد قيادات الجبهة واتهامهم بالشيوعية والتبعية للصين الماوتسونجية ، وفي نفس الوقت أعلنت سلطات النظام العفو العام لأعضاء الجبهة إذا ألقوا أسلحتهم ، ووعدتهم بمكافآت مالية وامتيازات أخرى تشتمل المنح الدِّراسية في الأكاديميات العسكرية وكانت محرمة على المسلمين ، ومَناصب مغرية في الإدارات المحلية .

وأصبح الخبر اليوميّ الذي يتصدر عناوين الصحف ونشرات الأخبار: جرائم جديدة ترتكبها جبهة تحرير مورو، التي وُصفت في كل خبر بالإرهاب والخروج على القانون ، وأصبحت هي المسئولة عن أي حادث قتل أو تخريب أو خطف أو تهريب يقع في أي مكان بالمحافظات الجنوبية .

ومع التعتيم الإعلاميّ على العمليات القتالية الناجحة التي تقوم بها الجبهة ضد الجيش الفلبينيّ لتمزيق الحصار المضروب على المسلمين في الجنوب ، ومع انقطاع الاتصال بقادة العمليات في الجبهة ، بدأت القيادات السياسية للجبهة في الخارج تضطرب وتنقسم على نفسها .

المستوى الثالث:

في هذا المستوى نرى الرئيس الفلبينيّ ماركوس مضطرًا للتفاوض مع «جبهة تحرير مورو» ، ونرى الرئيس الليبي معمر القذافي يتبنى قضية المسلمين في الفلبين ويحتضن الجبهة ويُسَاندها للحصول على عضوية منظمة مؤتمر الدول الإسلامية سنة ١٩٧٣ ، ومن ثم شرعت المنظمة تناقش قضية مُسْلمي الفلبين والمطالب التي قدمتها الجبهة ، وتَلَى هذه المناقشات قرار من وزراء الخارجية بإرسال وفد لتقصي الحقائق في الجنوب الفلبينيّ ، ثم عاد المؤتمر سنة ١٩٧٤ لينظر في محتويات تقرير الوفد ، وصدر قرار من المؤتمر بدعوة الحكومة الفلبينية وقف العنف ضد المسلمين والبحث عن حلّ سلميّ على موائد المفاوضات ، وذلك في إطار وحدة الأراضي الفلبينية ، ومعنى هذا أن المؤتمر لم يُوافق على أحد بنود جبهة تحرير مورو وهو الانفصال .

اضطر ماركوس للدخول في مفاوضات مع الجبهة سنة ١٩٧٥ مع تكثيف مناوراته وحملاته الدعائية ضدها على النحو الذي أشرنا إليه ، مما يدل على أنه لم يكن جادًا في الوصول إلى تسوية سلمية حقيقية إلا بشروطه التعجيزية : الاستسلام التام أو الموت الزُّؤام .

فما الذي جعل ماركوس يتظاهر بقبول التفاوض مع الجبهة ؟

أوّلا- لأن ماركوس كان يخشى إذا لم يقبل بدعوة المفاوضات أن تستجيب دول المؤتمر الإسلاميّ لمطلب الجبهة بحظر بيع البترول إلى الفلبين .

ثانيًا- لأن الفلبين تحصل على سبعة مليارات دولار أمريكيّ قيمة أُجور الفلبينيين العاملين في دول الخليج ، وهو مصدر هام من مصادر الدَّخل القوميّ ، لا يتحمل اقتصاد الفلبين المتدهور الحرمان منها ، إذا قررت دول الخليج الاستغناء عن العمالة الفلبينية .

ثالثًا- لم يجد ماركوس بأسًا من الدخول في مفاوضات عقيمة يكسب بها الوقت حتى تُؤتي سياسته في تمزيق جبهة المقاومة أُكلها .

ولأَن جدّية ماركوس لم تكن متوفرة من البداية سرعان ما وصلت المفاوضات إلى طريق مَسْدود ، وعندها انطلقت أجهزة ماركوس الإعلامية تشن حملة دعائية جديدة ضد قيادات الجبهة تزعم أنهم أدوات في أيدي أجنبية تحركهم ضد وطنهم الفلبين ، ولم تُفْلح جهود الرئيس القذافي ولا منظمة المؤتمر الإسلاميّ في إعادة الأطراف إلى مائدة المفاوضات .

كان القذافي يُساند نور مسواري ويَدْعم جبهة تحرير مورو بالمال والسلاح ، لذلك رأى « ماركوس » مُداهنة القذافي و التَّلطف معه لعله ينجح في فصم عرى هذه العلاقة بين مسواري و القذافي ، وبذلك يقطع الإمدادات والسلاح عن الجبهة ، لذلك أرسل إليه زوجته الجميلة إميلدا في بعثة دبلوماسية فوق العادة ، فقامت بزيارة ليبيا خلال ديسمبر ١٩٧٦ م .

واستؤنفت المفاوضات بعد الزيارة مرة ثانية بين ممثلي حكومة الفلبين وقيادات الجبهة المقيمين في ليبيا ، وتمَّ التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار وإعلان مبادئ لتسوية سلمية عُرِفت باسم اتفاقية طرابلس .

تضمَّنت هذه الاتفاقية إقامة حكم ذاتيّ للمسلمين في ١٣ محافظة بالجنوب الفلبينيّ ، حيث تتركز الأغلبية المسلمة في « مندناو » و « سولو » و « بالوان » ، متضمنة أنظمة مستقلة للمسلمين في الإدارة والتشريع والقانون والتعليم والتمويل والاقتصاد وقوات الأمن .

وبقيت نقاط أُخرى من أهمها حق المسلمين في التمثيل بالحكومة المركزية، حيث تُركت

لاستكمال التفاوض بشأنها في جولة أخرى تَقَرَّرَ أن تجري في شهر فبراير ١٩٧٧ م .

وهنا نَصل إلى المَحَكّ في صدق النَّوايا ، حيث خرجت الحكومة الفلبينية – كما تفعل إسرائيل – بشرط جديد وهو أن تضع الاتفاقية أمام الشعب الفلبينيّ في استفتاء عام وهو الأمر الذي رفضته الجبهة على الفور ، إذ لم يكن في المفاوضات شرط كهذا لمناقشته ، كما أن الجبهة كانت تعلم مقدّمًا نتيجة استفتاء كهذا ، فالنظام الدكتاتوريّ إما أن يُزَوِّر الاستفتاء كعادته ، وإمَّا أن يرفض المسيحيون وهم الأغلبية العظمي في الفلبين الحكم الذاتيّ للمسلمين في الجنوب .

وكالعادة انطلقت أجهزة الإعلام الفلبينية تَعْوي في حملة جديدة اتهمت فيها الجبهة بالتراجع عن اتفاقية طرابلس وأنها انقلبت إلى موقفها السابق تطلب الانفصال الكامل، واتهم الطرفان كلًا منهما الآخر بانتهاك اتفاق إطلاق النار ، ومن ثَمَّ اشتعلت جبهة القتال من جديد .

أَصَرَّ القذافي على مُتَابعة جهوده لإنقاذ اتفاقية طرابلس ، فتبادل الرسائل التلغرافية مع الرئيس ماركوس فانتهيا إلى الاتفاق على إنشاء حكم ذاتيّ في ١٣ محافظة بالجنوب الفلبينيّ ، وتَعْيين حكومة مُؤَقَّته وتنظيم استفتاء عام لتحديد تفاصيل النظام الإداريّ ، ودعّم هذا الحل المؤتمر الإسلاميّ ، ولكن تلاعب أنصار ماركوس – كما كان متوقّعًا – في الاستفتاء العام ، ولأنه تم بغير اقتناع ولا رضا الجبهة ، قاطعه أنصارها ، وبناء على النتائج المُزَوَّرة أقام ماركوس مناطق ذات حكم ذاتيّ في المحافظة التاسعة (غرب مندناوسولو » والمحافظة الثانية عشرة وسط مندناو »".

ثم جاءت انتخابات المجالس المحلية مُخَيِّبةً للآمال؛ بسبب تلاعب الحكومة فيها أيضًا، وسجلت لجنة مراقبة الانتخابات في تقريرها أن الجماهير نأت بنفسها عن صناديق الاقتراع، وأَبدت لا مُبالاة واضحة بالانتخابات ، وعدم ثقة بجدية الممارسات السياسية في المحافظتين ، فأعيدت الانتخابات مرة ثانية سنة ١٩٨٢ م ، ولكن لم يتغير موقف الجماهير ولم تتغير الأوضاع الفاسدة .

كان ماركوس طوال الفترة من سنة ١٩٧٧ حتى ١٩٨٢ لا يحاول قطع (شعرة معاوية) فهو دائمًا يُعْلن استعداده للتفاوض وأنه مع السلام ، حتى لا يبدو مُعارضًا للتسوية السلمية أمام الدول المسلمة ، ولكنه في كل مرة تقترب فيها المفاوضات من حلٍّ وشِيك يخرج بشروطٍ جديدة ، فقد تعلَّم الدرس جيّدًا من أصدقائه الصهاينة ، فهو يعلن مرةً ضرورة العمل ضد الذين أخلّوا باتفاق وقف إطلاق النار أولًا ، ويطلب مُؤَازرة الدول الإسلامية في هذا الجهد ، ومرة أخرى يُطَالب بألا تنفرد جبهة التحرير بالمفاوضات لأنها في نَظَرِه لا تمثل كل الشعب المسلم ، ومن ثَمَّ فلابد – في نظره – من مشاركة جميع الفئات الأخرى التي هي في الحقيقة فَبْركة مَاركوسية .

أشاعت الحكومة الفلبينية سنة ١٩٧٩ أن نور مسواري زعيم جبهة تحرير مورو قد انقلب على مقترحات الحكم الذاتيّ لاتفاقية طرابلس وعاد إلى الخط المُتَشَدِّد يُطَالب بالانفصال ، والحقيقة أنه لم ينقلب على الحكم الذاتيّ وإن كان قد اضطر إليه ؛ لأنه لم يجد سَندًا له في مطالبته بالانفصال سواء من الرئيس القذافي أو من منظمة المؤتمر الإسلاميّ ، فَقَبِلَ بما هو ممكن عمليًا في هذه المرحلة .

نعلم أنه بعد إعلان ماركوس قوانين الطوارئ في الفلبين ظهرت حشود عسكرية متزايدة في مندناو و سولو ؛ حيث تفجَّر القتال على نطاقٍ واسع في مدينة مارواي سنة ١٩٧٢ ، وفي هولو سنة ١٩٧٤ وفي "باتا" سنة ١٩٨١ م ، وَصَفتها أجهزة الإعلام الفلبينية بأنها عمليات عسكرية ناجحة طبقًا للبيانات والتصريحات العسكرية التي صدرت من قيادة القوات المسلحة ، والحقيقة أَنَّ كل هذه العمليات كانت مجرّد مَجَازر وَحْشِيّة وقتل عشوائيّ للسُّكان المدنيين ، فيما يُشْبه العقوبات الجماعية التي تمارسها إسرائيل على الشعب الفلسطينيّ ، ذهب ضحيتها الآلاف من المسلمين ، ولكنها طالت أيضًا غيرهم من أبناء القبائل ، مما دفع بأعداد كبيرة من الشَّباب للالتحاق بصفوف المقاومة المسلحة فيما عرف باسم "بنجسا مورو الإسلامية ".

نجحت الحملة العسكرية على المدن والقرى في طرد قوات المقاومة منها فأخذت مواقع حصينة لها في الغابات، كما نجحت الحملة الدعائية في اللعب على نغمة العفو العام عن المقاتلين نجاحًا محدودًا، ولكن انتقال قيادات المقاومة من ناحية وتخلِّي بعض المقاتلين عن السلاح وتسليم أنفسهم للسلطات أَحْدَث اضطرابًا مؤقتا.

وبدا للقوات المسلحة سنة ١٩٨١ أنها قد أصبحت في وضع يسمح لها بإعلان تغيير في سياسة العمليات وإعادة تنظيمها، بحيث تقتصر على وحدات صغيرة من الجيش مُدَرَّبة على القتال في الغابات .
ولكن على الرغم من التقليل من شأن المقاومة التي أعلن الجيش أَنَّه سحقها تمامًا ، لا تزال الصدامات العسكرية تقع من حين لآخر ولا يزال النزيف مستمرًا ولا تزال قوانين الطوارئ سارية المفعول في الجنوب الفلبينيّ .

تقييم العمل السري:

لابد هنا من وقفة لتقييم الأعمال التي قام بها ماركوس لإعادة السلام إلى الجنوب الفلبينيّ ؛ فلطالما ركزت حكومة ماركوس على مسألة التنمية الاقتصادية والاجتماعية كحلٍّ وحيد لقضية الجنوب ، وصحيح أنه حدث توَجُّه حكوميّ في هذا المجال ، ولكن ما تم إنجازه كان فضيحة بكل المقاييس .

وفي هذا يقول آر. جي. ماي: "إنَّ ما تم إنجازه لم يكن موجّهًا في حقيقة الأمر إلى المسلمين وإنما استفادت به مجتمعات المستوطنين المسيحيين ، بل ترتَّب عليه – أكثر من هذا – اتساع الفجوة بين المسلمين الذين ازدادوا فقرًا وبين فئة المستوطنين الذين ازدادوا ثراء » .

وتفصيلا لهذا يُشير «ماي» إلى مشروع كهرباء نهر أنجوس الذي يُوَفِّر الطاقة الكهربائية لمشروعات صناعية في كاواساكي اليابانية في مناطق "اجيان دي أور" ومشروع آخر في "ميساميس أورينتال" وصناعات أخرى في "ليجان ودافاوْ" .. هذه المناطق كلها تسكنها أغلبية مسيحية من المستوطنين، والأدهي من ذلك أن هذه المشروعات قد أثّرت على مستوى المياه في بحيرة لاناوْ، مما أسفر عن ظهور مخاطر بيئية على السكان المسلمين الفقراء الذين يعيشون على شواطئ هذه البحرية ويَعْتَمدون في معيشتهم على الصَّيد الذي لم يعد مُتَاحًا لهم الآن .

ويمضى « ماي » فيقول : « لا تزال الحكومة الفلبينية في عهد ماركوس تُواصل مصادرة أراضي المسلمين بزعم الحاجة إليها لتنفيذ مشروعات التنمية ، ويضرب مثالاً بما فعلته هيئة الطاقة الوطنية ، وكذلك لا تزال عمليات الهجرة والاستيطان المسيحيّ مستمرة في مندناو بحجة الإعمار ، وهي محاولات متعمدة لإزاحة المسلمين من أرضهم ومساكنهم إلى مناطق هامشية بعيدًا عن حركة التعمير" .

ولذلك يَحِقُّ لجبهة تحرير مورو أن تنظر بعين الرِّيبة إلى عملية التنمية الاقتصادية في الجنوب، فهي ترى أنه حتى لو صحّت النوايا فإن الطريقة الرأسمالية الفاسدة التي يتبعها ماركوس ونظامه ستؤدي إلى عواقب اجتماعية وخيمة في المستقبل؛ لأنها تعمق الهوّة بين طبقات المجتمع مما سيترتب عليه صدام طبقِيٌّ مؤكد .

من أهم المطالب التي وافق عليها ماركوس سنة ١٩٧٣ ولم ينفذها هو الاعتراف بالقوانين الشرعية بين المسلمين ، كما وافَق على إنشاء المحاكم الشرعية سنة ١٩٨٢ ولكنه لم ينفذ شيئا من ذلك أيضًا .

وهكذا بدلا من أن يَفِي ماركوس بالتزاماته ويُنَفِّذ مَا تَمَّ الاتفاق عليه في مفاوضاته مع جبهة تحرير مورو ، مضى قُدمًا في خطته لتمزيق الجبهة ، وإبْراز قوى أخرى منافسة لها من بين القيادات التقليدية ، هذا إلى جانب دعوة النظام إلى العفو العام والتلويح بالحوافز ، كل هذا أدى إلى انقسام شديد في قيادة الجبهة ، وانشقاق الجبهة ذاتها إلى جبهتين يَرأْس أحدهما رئيسها السابق نور مسواري ، ويرأس الثانية نائبه هاشم سلامات الذي أضاف إلى اسم جبهته (الإسلامية) بدلًا من الوطنية .

هذا الانقسام في حَدِّ ذاته أحرج مُنَاصري الجبهة في العالم المسلم ، وكان سببًا في إضعاف الدعم الخارجيّ للمقاومة الإسلامية ، وبالتالي خفّت الضغوط الدولية على حكومة ماركوس

، مما يسَّر لها أن تتخلى عن كل تعهداتها ؛ ومن بينها اتفاقية طرابلس ، وبذلك وصلت عملية السلام إلى باب مسدود ، أولًا بالاسترخاء التام من جانب الحكومة الفلبينية فيما يتعلق بالاستجابة لمطالب الثوار في الجنوب ، وثانيًا بتكاثر المشكلات وتعقيدها أمام قيادة المقاومة المسلمة .

لم تَعُد الحكومة الفلبينية تَخْشى من حظر البترول، فقد هددت إيران بذلك ولكن لم تنفذ تهديدها ، كما توقف المؤتمر الإسلاميّ عن مساعيه للتوفيق بين جبهة تحرير مورو وبين الحكومة الفلبينية .

تقييم العمل العسكري:

تَزْعم الحكومة الفلبينية أن القوات العسكرية قد حقَّقت نجاحًا ساحقًا على الجبهة ، ولكن المحلّلين السياسيين يُبْدون شُكوكهم في هذه المزاعم ، فلا يزال الاحتكاك العسكريّ مُتواصلًا بشكل أو آخر ، بل ظهرت في عهد « ماركوس » حوادث صدام بين القوات المسلحة وبين قوات الشرطة المحلية وكثر المفقودون من الجانبين ، وتدنت الروح العسكرية بين الجنود حيث استطاعت جبهة التحرير شراء أسلحة من هؤلاء الجنود .

كثيرًا ما توجّهت أمانة منظمة المؤتمر الإسلاميّ إلى حكومتيْ إندونيسيا وماليزيا للتوسط لدى حكومة الفلبين لإنهاء النزاع سلميًّا ، وعندما كانت المقاومة الإسلامية تشتد وتخرج عن نِطاق السيطرة للجيش الفلبينيّ ، كان الرئيس ماركوس يلجأ إلى رئيس وزراء ماليزيا ورئيس جمهورية إندونيسيا سوهارتو للتوسط بينه وبين الجبهة لإنهاء النزاع ، وأخيرًا اجتمع الرئيسان الإندونيسيّ والماليزيّ في ١٢ مايو ١٩٨٦ ووجَّها دعوتهما إلى رئيس الفلبين لاستئناف المفاوضات على أساس اتفاقية طرابلس تحت رعاية المؤتمر الإسلاميّ .

تظاهر ماركوس بالترحيب بدعوة القمة ، ولكنه لم يلتزم باستئناف المفاوضات بحجة وجود خلافات في الجبهة بين حزبي "مسواري" و"سلامات" ، وأن الحكومة الفلبينية سوف تراقب تطورات الأحداث قبل الموافقة على استئناف المحادثات ، وأضاف ماركوس أن الجبهة بحزبيها لا تمثل كل شعب مورو ، علمًا بأنه على يقين بأن جميع القوى والفصائل المسلمة تُساند اتفاقية طرابلس ، وأنها ستُجْمِع على قبول أي تسوية جدية وعادلة تقوم على أساس هذه الاتفاقية .

في غضون هذه الفترة من عام ١٩٨٦ انعقدت في مانيلا ندوة حوار بين المسلمين والمسيحيين من كلا الطائفتين الكاثوليكية والبرتستانتينية، انتهت بتوجيه خطاب مشترك

إلى الرئيس ماركوس احتوى على الحقائق التالية:

١ – هناك عمليات عسكرية متواصلة من جانب القوات المسلحة والأمن نتج عنها أعداد لا تحصى من الضحايا، منهم من قُتل ومنهم من تَشَرَّد وأصبح لاجئًا بلا مأوى.

٢ – الاتهامات التي تُوجهها السلطات الفلبينية إلى الشباب المسلم بالتمرد لا تقوم على أساس صحيح .

٣ – الأعمال الانتقامية البشعة ذهب ضحيتها كثير من النساء المسلمات والأطفال والشيوخ، وقد حدث هذا من جانب الجيش عمدًا بعد أن تأكد أنه قد قضى على المقاتلين المسلَّحين .

٤ – الوحدات العسكرية التي ارتكبت أعمالًا وحشية غير عادية وساءت سمعتها نقلت إلى مواقع أخرى وظلت تمارس عملياتها الوحشية .

٥– إطلاق القذائف المدفعية على مواقع مدنية لا مبرر له ، وقد تسبب في إعاقة الحياة العادية للفلاحين وصائدي الأسماك فلم يعودوا يخرجون للعمل إتقاءً لخطر االقذائف العشوائيّة .

٦ – تواطؤ العسكريين مع أصحاب الإقطاعيات الزراعية الكبيرة في الاستيلاء على مزيد من الأراضي لتوسيع إقطاعياتهم على حساب الفلاحين المسلمين ، وبالمخالفة للقوانين .

ويَمْضي الخطاب فيلخص وجهة نظر الأطراف المشتركين في الندوة في الآتي :
« لقد لاحظنا أَنَّ أبشع الانتهاكات التي وقعت في « مندناو » و « سولو » تقوم بها قوات عسكرية أُسيء توجيهها ، إلى درجة أنهم لا يعتبرون سكان هذه المناطق من الفلبينيين .

وهنا يدعو المشاركون في الندوة الرئيس ماركوس ليأمر قواته بالرجوع إلى معسكراتهم الرئيسية بدلًا من الانتشار في كل مكان ، وأن تتم محاكمة الذين ارتكبوا جرائم حرب منهم بدلًا من مجرّد نقلهم من موقع إلى موقع آخر فيرتكبون جرائم جديدة ضد المدنيين ، ويدعو المشاركون إلى ضرورة أن يتعلم الجنود شيئًا عن الإسلام وتاريخ المسلمين الفلبينيين ، بدلًا من أن يلتقطوا معارفهم في هذا المجال من مصادر مشبوهة .

والحقيقة أن أهمية هذه النَّدوة لا يرجع إلى ما صدر عنها من توصيات بقدر ما كانت فرصة لغير المسلمين للنظر في حقيقة ما يجري على أرض الواقع فهي شهادة واجبة كان لابد من أدائها في أجواء سياسية وإعلامية مسعورة ، بلغت من الإسفاف والجرأة على تشويه الحقائق وتزييف الواقع حَدًا كان لا ينبغي السكوت عليه .

تقييم أوضاع المقاومة الإسلامية:

منذ سنة ١٩٧٠ م واللجنة المركزية لجبهة تحرير مورو الوطنية تعمل من قواعدها في ليبيا بزعامة نور مسواري ، وفي ديسمبر سنة ١٩٧٧م انقلب عليه نائبه ورئيس لجنة الشئون الخارجية للجبهة هاشم سلامات ، واتخذ لنفسه مقرًا بالقاهرة ، واتهم مسواري بالقيادة الأوتوقرطية والاتجاهات الشيوعية ، وأقدم على خطوة أكثر إضرارًا بمكانة الجبهة ، حيث أخطر أمانة منظمة المؤتمر الإسلاميّ بأنه قد تولى قيادة الجبهة بدلًا من مسواري ، مما اضطر مسواري إلى إرسال نفي لهذا الخبر إلى أمانة المؤتمر ، وأكد أنه لا يزال على رأس الجبهة ، ومن ثم أهملت الأمانة خطاب
هاشم سلامات .

وفي نفس السنة ظهر تنظيم جديد باسم منظمة « بنجسا لتحرير مورو »، اتخذت لها مقرًّا في جدة بزعامة السلطان السابق هارون رشيد لقمان عرف باسم رشيد لقمان، وقيل إنَّ مؤيدي هذه المنظمة من بين الطبقة الحاكمة التقليدية في جنوب الفلبين أبناء السلاطين والداتو ، ومن السياسيين القدامي ، وقيل أيضًا أن لها علاقات خاصة ببعض المستثمرين الأمريكيين أصحاب المصالح الرأسمالية في الفلبين.
وأذكر هنا أنني سمعت من أحد السياسيين الفلبينيين المسلمين المتعاطفين مع قيادة نور مسواري في محاضرة عامة بجامعة قطر أن الحكومتين المصرية في عهد الرئيس السادات والمملكة السعودية كان لهما دور في تفكيك جبهة تحرير مورو ؛ فهاتان الحكومتان – حسب رأي المحاضر– كان لهما رؤية خاصة في حل مشكلة الجنوب الفلبينيّ ، ولأن هذه الرؤية أقرب إلى سياسة ماركوس تجاه الجبهة ، وضع المحاضر علامة استفهام أمام هذا السؤال : هل كان لِهاتيْن الحكومتين علاقة ما بخطة ماركوس في تصفية المقاومة .. خصوصًا وأن الولايات المتحدة كانت تدعّم هذه الخطة .. وتشجع أصدقاءها على المساعدة في تحقيقها..؟!.

اعتبرتُ أن هذا كلام قابل للصحة والخطأ والأمر يحتاج إلى تحقيق وبحث. ولكن كان في قاعة المحاضرة عدد كبير من أساتذة الجامعة أكثرهم من المصريين ، فإذا بهم ينفجرون في مقاطعة حادة بعاصفة من الاحتجاجات ، تحدث بعضهم عن مواقف مصر الثابتة في تدعيم مُسْلمي الفلبين ، وتحدث آخرون عن المِنَح الدراسية السَّخية التي يتمتع بها أبناء الفلبين في الجامعات المصرية ، وأراد المحاضر أن يوضح موقفه وأنه لا ينكر شيئًا من جهود مصر وأفضالها في هذا المجال ، وأنه إنما يتحدث عن تَوجُّهات مختلفة في أسلوب معالجة قضية المسلمين في الفلبين ، وأن الحكومة المصرية ربما اتخذت في هذا الأمر اتجاهًا مختلفًا عن اتجاه ليبيا ، وكانت هناك خصومة سياسية بينهما وصلت إلى حد الصدام العسكريّ على الحدود . ولكن الرسالة لم تبلغ غايتها من عقول المستمعين، وظَلَّ الغضب مشتعلًا، فوجد المحاضر أنه أصبح في موقف شديد الحرج فاضطر إلى الاعتذار إلى المستمعين.. ثم تغيرت لهجته وشعرت أن المحاضرة قد أخذت منحَى مختلفًا عن وجهتها الأصلية.

ومهما يكن من شأن العوامل الخارجية من أهمية في التأثير على قيادات الجبهة ، تبقى الحقيقية الأهم وهي أن الانشقاق الذي حدث في جبهة مورو فيما بين سنتيْ ١٩٧٧و١٩٧٨م كان أثرًا مباشرًا من آثار سياسة ماركوس وتدابيره ، وهي السياسة التي أدَّت إلى إضعاف المقاومة الإسلامية برمتها ، وشتَّتت القوى السياسية والعسكرية للمسلمين ، وتصادم القيادات والجماعات فيما بينها ، وفي النهاية – كما ذكرنا من قبل – توقفت المفاوضات وتلاشت اتفاقية طرابلس في زوايا النسيان. .

اتجه مسواري إلى إنشاء مكاتب لجبهته في دمشق وجدّة وطهران وكان يتنقل بين هذه المكاتب وفقًا لظروف وتطور الأحداث ، وكان لحسن حظه يتلقي دعمًا من الملك خالد ومن الإمام الخميني في وقت واحد .
بينما انتقل هاشم سلامات إلى باكستان وظل أنصاره يغازلون الحكومة الفلبينية ، وبقي نور مسواري وجبهته يمثلان استمرار المقاومة المسلحة النشطة في الجنوب الفلبينيّ .

في سنة ١٩٨٠/١٩٨١م م التقى بنينو أكينو زعيم المعارضة الفلبينية مع نور مسواري في جدة ودمشق عدة لقاءات تفاوضية ، أعلن على أثرها أنه قد تم الاتفاق بينه من جهة وبين نور مسواري و رشيد لقمان من جهة أخرى على تسوية سلمية على أساس اتفاقية طرابلس . وترجع أهمية بنينو أكينو أنه كان الزعيم الذي أجمعت عليه المعارضة الفلبينية، وكان صاحب النجم الصاعد في أفق السياسة الفلبينية، بينما كان نجم ماركوس في أُفول ، بعد أن تدهورت صحته وارتخت قبضته وتلطخت سمعته وعمَّ الفساد والفوضى في الساحات السياسية والعسكرية والاقتصادية .

ولكن – مما يُؤْسَفُ له – وقع في مارس ١٩٨٢م انشقاق جديد في جبهة تحرير مورو الوطنية، حيث أعلن أحد قادتها وهو "ديما سانكاي بونداتو" أنه أنشأ مجموعة جديدة باسم إصلاح الجبهة (في جدة) ، والتحق بجبهة هاشم سلامات .

كان « بنينو أكينو » قد تحدث باستفاضة عن مشروعه في التسوية السلمية في محاضرة بجامعة الملك عبد العزيز بجدة [حصلتُ على نسخة منها مسجلة من مكتبة الجامعة] ، وقد وعد أكينو في هذه المحاضرة بأن تكون قضية المسلمين في جنوب الفلبين على رأس أولوياته فور تولِّيه السلطة، ثم جاء حادث اغتياله في مطار مانيلا لِيُغلق صفحة من الأمل أمام التسويات السلمية .

وأخذ تفسّخ المقاومة الإسلامية يَطُلُّ برأسه في أحداث متلاحقة ففي يونية ١٩٨٢ عقدت مجموعة من الناس في منطقة « صباح » ما سمِّي بمؤتمر شعب مورو ، ادَّعُوا بأنهم يمثلون المجاهدين والجماهير من شعب مورو ، وأعلنوا إزاحة مسوارى من زعامة الجبهة وانتخاب «ديما سانكاي بونداتو » قائمًا بأعمال رئيس الجبهة .

في نفس الوقت كان مسواري يسعى لدى منظمة المؤتمر الإسلاميّ لكي ترفع مستوى

تمثيل الجبهة من مُراقب إلى مستوى العضوية الكاملة أسوةً بجبهة التحرير الفلسطينية ، وقبلت المنظمة هذا المسعى ، ولكن لدى اجتماع وزراء خارجية دول المؤتمر الإسلاميّ في النيجر خلال أغسطس ١٩٨٢ ، ووجه المؤتمر مرة أخرى بمزاعم لقيادات مختلفة للجبهة من عدة أطراف ، ولكن استقر اختيار المؤتمر على أن يكون "مسواري" هو ممثل الجبهة في المؤتمر ، وإن لم يوافق الوزراء على طلبه بالانفصال التام عن الفلبين .

وانتهى المؤتمر إلى توصية تدعو فيها الحكومة الفلبينية لتطبيق اتفاقية طرابلس تطبيقًا عمليًا أمينًا، كما دعا زعماء المقاومة للاستعداد للتفاوض كجبهة موحدة.

وفي يناير ١٩٨٣ انعقد في كراتشي مؤتمر للمقاومة برعاية منظمة مؤتمر العالم الإسلاميّ ، ثم تلاه « مؤتمر توحيد مسلمي الفلبين » ، حضره ممثلو أربعة فصائل بالإضافة إلى مجموعة جديدة تحت اسم «جمعية الطوائف المتعددة » ، هذه المجموعة تفوَّقت في عدد ممثليها عن بقية الفصائل الأخرى في المؤتمر ، وكانت تضم شخصيات من القيادات التقليدية المشهورة أمثال أحمد دوموكاي ألنتو و ساليبادا بنداتو ، الذي أقام لنفسه دعاية ضخمة منذ عودته إلى الفلبين سنة ١٩٨٠ بعد أن قضى في منفاه الاختياريّ سبع سنوات ، ثم أنشأ جمعية مسلمي الفلبين المحافظة ، وكان ضمن هذه المجموعة أيضًا عدد من المقاتلين السابقين الذين سَلَّمُوا أنفسهم للسلطات الفلبينية مثل « أبو الخير ألنتو » ، وعدد من رجال السلطة المحليين كما حضر رَشِيد لقمان .

ولكن المُلْفِت للنظر أن نور مسواري و هاشم سلامات وهما الشخصيتان المحوريتان في المقاومة الإسلامية لم يحضرا هذا المؤتمر ، معبّرين عن ثقتهما بأن منظمة مؤتمر العالم الإسلاميّ قادرة على إيجاد حلّ للصراع .

دعا المؤتمر إلى استئناف المفاوضات مع الحكومة الفلبينية على أساس اتفاقية طرابلس ، وهكذا أصبح مجرد استئناف المفاوضات في حد ذاته هدفًا مطلقًا يستقطب جهود الجميع كأنه هو القضية ، وهذا السناريو صورة طبق الأصل لِعَبَثية المفاوضات التي تبدأ وتتوقف دون جدوى بين الفلسطينيين والإسرائيليين .

إلى جانب الدعوة إلى استئناف المفاوضات دعا المؤتمر إلى إدماج المجلسين الإقليميين - في جنوب الفلبين- في مجلس واحد ، وعلى أثر هذا قام أمين عام منظمة المؤتمر الإسلاميّ بزيارة إلى الفلبين ومعه خطة من عشر نقاط تتفق في خطوطها العريضة مع مقترحات « أبو الخير ألنتو» التي أصدرها في كتيّب سنة ١٩٨٢ .

وفي تطور آخر خلال أكتوبر سنة ١٩٨٣، أعلنت مجموعة من القيادات المسلمة يرأسها « مامنتول تامانو » وهو سناتور سابق في الكونجرس الفلبينيّ ، شملت أحمد ألنتو و أبو الخير ألنتو و بنداتون – أعلنت بيانًا هدَّدَت فيه أنه إذا لم تتحقق تسوية وطنية عادلة وسريعة فإنه سيتعيّن على المشاركين في هذه المجموعة اللجوء إلى إعلان الاستقلال من

جانب واحد .

لم تستجب الحكومة الفلبينية لهذا الإعلان الذي كان آخر صيحة أطلقتها الذبيحة وهي تُوشك على الانهيار ، حيث بدأت الأمور تتدهور ، ويغوص النضال المسلح في مستنقع من الفَوضى بعد أن تبعثرت قياداته في الآفاق وظهرت على سطح الأحداث مجموعة من الشباب الأغرار قليلي الخبرة ضعيفي الفكر ، مجموعات ينقصها التوجيه والتنسيق فأصبحت تتصرف مثل العصابات ، ومن ثَمَّ ظهرت حالات من خطف الرهائن على غرار ما رأينا مؤخَّرًا على شاشات التلفاز في مشهد استمر عدة أسابيع خلال صيف عام ٢٠٠٠م بجزيرة هولو ، فيما عُرِفَ بعملية « أبو سيَّاف » ، وقيل أنه كان من مقاتلي جبهة تحرير مورو ثم انشق عليها ، والحقيقة أن تمزق الجبهة سمح باختراقها من قِبَل الأجهزة الاستخبارية والأَمنية ، وظهرت عصابات إجرامية ركزت عملياتها على السطو المسلح وادعت أنها تعمل في جبهة تحرير مورو كما حدث في الجزائر .

سقوط ماركوس:

كان مقعد الدكتاتور المريض المتشبث بالسلطة يتهاوى من تحته قطعة قطعة، يومًا بعد يوم ، في سناريو لَفَت أنظار العالم فظلت أنظار الناس مسمّرة على شاشات التلفاز تشهد هذا السقوط الوشيك .

فَشل ماركوس في كل وُعُوده لجماهير شعبه عندما بَشَّرهم بالرخاء ، فإذا بالاقتصاد الفلبينيّ يصل إلى درجة من الانهيار لم تحدث في تاريخ الفلبين الحديث ، إلا إبّان الحرب الأهلية التي تمخضت عنها الحروب المدمرة بين اليابانيين والأمريكيين على أرض الفلبين خلال الحرب العالمية الثانية .

كانت الفلبين في عهد الرئيس « ماكاباجال » خلال الستينات من القرن العشرين أكثر دول جنوب شرق آسيا تقدّمًا اقتصاديًّا وديمقراطيًّا وتعليميًّا ، وكانت مُؤَهَّلة لأَن تكون أوّل النمور الاقتصادية في هذه المنطقة فلم تكن تايوان ولا كوريا الجنوبية في ذلك الوقت شيئًا مذكورًا ، كانت الفلبين تملك بنية أساسية قوية ، وتملك قاعدة صناعية عريضة ومستقرة ، وكانت منطقة جذب للاستثمارات الأجنبية ، فلما جاء ماركوس، بعقلية الدكتار المستبد- نسف كل هذه المميزات بسياسته الأنانية الحمقاء ، فاتسعت رقعة الفقر اتساعًا رهيبًا وتركزت الثروة الفاحشة في أيدي القلة القليلة من الرأسماليين المستغلين سواء منهم المحليين أو الأجانب ، وجرف الفساد السياسيّ والإداريّ السلطة بعيدًا عن المسار الديمقراطيّ الذي تمتعت به الفلبين فترة طويلة من الزمن وأصبحت قمة السلطة مشاركة في نَهْب أَموال البلاد واحتكار ثرواتها .

من هنا بدأ أنصار ماركوس الذين سَانَدُوه في بداية حكمه يَنْفَضُّون من حوله : تململت الكنيسة الفلبينية وأخذت تصريحاتهم تتسرب إلى الجماهير معلنة سخطهم على النظام المستبد وعلى الفساد ، وتقلَّص رصيد « ماركوس » في الجيش الذي سَانَده من قبل في انقلابه على الدستور ، فقد سَرَت روح التذمُّر بين القوات المسلحة من سوء الأوضاع فيها ومن الزَّج بها في حروب ضد الأهالي لا مُبَرّر لها ، وكان هذا مبررًا كافيًا لرئيس هيئة أركان القوات المسلحة « فيديل راموس » أن يقف على الحياد في الصراع السياسيّ الذي حدث سنة ١٩٨٦ بين « ماركوس » وخُصومه في الانتخابات الرئاسية التي اضطر إليها بحثا عن شرعية جماهيرية ولو كانت مزورة .

كانت قائدة المعارضة هي « كورازون أكينو » زوجة الزعيم الراحل « بنينو أكينو » الذي اغتاله رجال ماركوس كما أشرنا من قبل . دخلت «أكينو» الانتخابات تركب موجة عالية من تأييد الجماهير الذين ارتبط بنينو أكينو في خيالهم برومانسية البطل القوميّ الذي يضحي بحياته من أجل الشعب ، مثل هوسي ريسال وبونيفاشيو في تاريخ النضال الفلبينيّ ضد الاحتلال الأسبانيّ . وقد أجمع المراقبون لعملية الاقتراع أن الاتجاه يسير في كل الدوائر لصالح كورازون أكينو ، ولكن أعلنت الجمعية الوطنية نتيجة الانتخابات بفوز ماركوس .

انفجرت الثورة بين الجماهير وخرجت المظاهرات في أنحاء الفلبين تهتف بسقوط الدكتاتور المزوِّر.. حاصرت الجماهير القصر الجمهوريّ « مالاكانيانج » بمانيلا ، فاستدعى «ماركوس» بعض أنصاره في الجيش لتفريق المتظاهرين ، فلما اقتربت الدبابات فوجئ الجنود بمشهد مذهل : مئات الآلاف من البشر يفترشون الأرض في إصرارٍ وتحدٍّ يخلع القلوب من الصدور ، توقفت الدبابات ثم تراجعت إلى الخلف ورفع بعض الجنود أيديهم يلوحون بالتحية للجماهير ثم انصرفوا من حيث جاءوا .

وحدث نفس المشهد مرة أخرى عندما أعلن الضُّباط في أحد المواقع العسكرية بمانيلا العصيان المسلح على ماركوس ، فأرسل إليهم الدَّبابات للقبض عليهم ، ولكن حاصرت الجماهير الموقع فلم تتمكن الدبابات من اختراق الحصار وانصرفت إلى حال سبيلها .

.

الصعود إلى الهاوية

كان هذا عنوان دراسة مستقلة نشرت حين صدورها على نطاق واسع ، تناولتُ فيها الأبعاد الشخصية والنفسية للطاغية الدكتاتور فرديناند ماركوس، وهو ليس بدعًا من الطغاة الذين ظهرو في العصور التاريخية المختلفة ، تجدهم يشتركون في نفس السمات : من الأنانية والانتهازية، والنزعة السلطوية والاستعلاء على شعوبهم ، والرغبة العاتية في قهرهم واستعبادهم .. واستخدامهم مطايا للوصول إلى غاياته ومآربه.. ومن شأن هذه الفئة من البشر أنهم إذا حكموا وتمكّنوا .. ضيّعوا شعوبهم ، وكانوا عقبة كئودًا في طريق التقدم والإصلاح والتطوّر .. ولقد لاحظت أنه أعاق الفلبين عن اللحاق بجاراتها من النمور الآسيوية ، في حين أنها كانت قبله متقدمة عليهم جميعًا ، وكان أولى بها أن تتصدر الجميع نظرًا لتفوّقها في العلم والتعليم والصناعة والاقتصاد جميعًا ..
أسوق هذه الدراسة كنموذج للتعرّف على خصائص هذا النوع من الكائنات الطفيلية التي تمتص طاقات البشر وتعوقهم عن النمو والانطلاق الطبيعي بزعم أنهم يفهمون مصالحهم أكثر، وأن الشعوب كالأطفال لا يجب أن يُسمح لها بممارسة الحرية حتى لا تؤذى نفسها كما يؤذى الطفل نفسه إذا لعب بسكين المطبخ ، لابد للشعوب من أوصياء مثل فرعون الذى قال لقومه: "ما أُرِيكُمْ إلا ما أرَي ولا أَهْديكمْ إلا سبيلَ الرَّشاد " وإليك خلاصة الموضوع:

فرديناند ماركوس دكتاتور الفلبين الذى قضى على الحياة الديمقراطية في بلاده .. وحكمها نيفًا وعشرين عاما حكما إستبداديا مطلقًا.. مكّن فيه بطانةً من المستغلّين والمنافقين ؛ نهبوا الثروات وأذلّوا العباد ونشروا الفساد.. وأجاعوا الشعب ودمّروا الإقتصاد .. وسلّموا رقبة الأمّة للأ جنبى يعبث بها ويفرض عليها إرادته وسياسته وشروطه.. كانت له سمات نفسية لازمته في مسيرة حياته كلها ، لم تفارقه .. وإنما زادت وتضخمت بامتلاكه السلطة .. ، فقد كان انتهازيًّا ، وكاذبا ، كان يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ، مهما بلغت من الانحطاط ، وحتى لو كان الوصول إليها يستلزم ارتكاب جريمة القتل ، أو الغدر وخيانة الأمانة، أوالتزير وتضليل الناس.

من بذور الشر نبتت الشجرة الخبيثة:

كان أول ما لفت انتباه الرأي العام إلى فرديناند ماركوس حادثة اغتيال مرشح منافس لأبيه في انتخابات برلمانية أجريت سنة ١٩٣٩م ، وكان ماركوس في ذلك الوقت لا يزال في الثانية والعشرين من عمره ، حديث التخرج بعد أن أكمل دراسته القانونية بالجامعة.. اتهمت عائلة القتيل فرديناند نفسه باغتيال الرجل ، وكانت الأدلة كلها ضده.. ولكن تدخل رئيس الكنيسة الكاثوليكية وبعض رجال في السلطة لإنقاذ الشاب الطموح المتحمس ذي المستقبل السياسي الواعد فأخلى سبيله.. ثم بدأ يروج عن نفسه أساطير بطولة زعم القيام بها أثناء حرب العصابات ، ضد الاحتلال الياباني للفلبين خلال الحرب العالمية الثانية ، وكان ذلك بمثابة تمهيد دعائي لانتخابه عضوا في البرلمان نائبا سنة ١٩٤٩ .. وظل بعد ذلك يصعِّد طموحاته السياسية فنجح في انتخابات ١٩٥٣ و١٩٥٧.. ثم رشح نفسه لمجلس الشيوخ ليصبح سناتور سنة ١٩٥٩ فنجح أيضا ، وبدأ يتأهل ليختاره حزب الأحرار لرئاسة الجمهورية سنة ١٩٦١ ، ولكن فاز عليه منافسه سناتور" ماكاباجال" الذي وعد ماركوس

ـ فيما يقال ـ بألا يتقدم لترشيح نفسه فترة ثانية سنة ١٩٦٤ ليترك له الفرصة.. ولكن "ماكاباجال" ـ حسب الراوية ـ نكص في وعده ، فغضب ماركوس وتحول إلى حزب المعارضة (الحزب الوطني).. وأصدر كتابا سنة ١٩٦٤ يحكي فيه قصة حياته ـبعد التعديل المناسبـ إذْ يطرح أفكاره التقدمية : فهو الذي صاغ مشروع قانون الإصلاح الزراعي، وهو نصير للحريات وحقوق الإنسان وهو إصلاحي حتى النخاع..! (فما أسهل الادعاء والكذب على طراز من الناس لهم حظ وافر في دنيا السياسة، والنّصبِ..!

أنفق ماركوس ببزخ شديد على حملته الانتخابية معتمدا على ثروة كبيرة تملكها أسرة زوجته "إميلدا" ، وعلى أموال طائلة يملكها صديقه "لوبيز" المرشح معه كنائب للرئيس.. وكانت لماركوس ثروة خاصة به ولكن مصدرها كان موضع شكوك من خصومه ، الذين زعموا أنها رشاوى جمعها معتمدا على نفوذه في البرلمان ..وهكذا
فاز ماركوس بمقعد الرئاسة في يناير سنة ١٩٦٥ ، وبدأ عهده بخطاب بليغ شخص فيه مشكلات الفلبين وعللها المزمنة.. وعرض برنامجا حافلا بالعلاج والإصلاحات واستبشر الناس خيرا بطلوع فجر جديد.

وعود كاذبة وحصاد مغشوش:

صور ماركوس نفسه في حملته الانتخابية بأنه الرجل القوي الذي يستطيع الوقوف في مواجهة أمريكا ويطلب منها تصفية قواعدها العسكرية في الفلبين.. فلما أصبح رئيسا لم ينفذ وعوده ، بل زاد الطين بله عندما قبل بمشاركة قواته المسلحة مع القوات الأمريكية في الحرب الفيتنامية ، وكان الرئيس" ماكاباجال "قد رفض طلبا أمريكيا بهذا الشأن بإصراره على عرض الطلب على البرلمان الفلبيني الذي رفضه بأغلبية كبيرة.

أما ماركوس (القوي) فقد أذعن ليثبت حسن نواياه وصداقته لأمريكا ، وأظهر وجها آخر لشعبه محتجًا بأنه ذهب لمساعدة دولة آسيوية جارة في حربها ضد العدوان الشيوعي.. وهكذا سوف ترى أن للمنافقين جعبة من الحجج والحيل لا تنفد!..
تمكن ماركوس مستعينا بمجموعة من التكنوقراط من وضع خطة رباعية للتنمية ..وأجرى بعض إصلاحات في الشرطة التي استشرى فسادها، وفي القوات البحرية التي كان بعض ضباطها ضالعين في عمليات تهريب المخدرات على نطاق واسع.. وبدأ يطبق قانون الإصلاح الزراعي في بعض المناطق.. ويبني مدارس ومطارات وطرق جديدة لتحسين البنية الأساسية استعدادا للانطلاق الصناعي كما زعم. وظل الاقتصاد الفلبيني متوازنا بلا عجز في ميزان المدفوعات... ولكن .. ! لم يكن هذا نتيجة زيادة في الإنتاج والتصدير ، وإنما نتيجة تدفق المساعدات الأمريكية كجائزة لماركوس على اشتراك قواته العسكرية في فيتنام... إضافة إلى الإيجار السنوي للقواعد العسكرية الأمريكية في الفلبين.

خرافة المشروعات العملاقة :

استغل ماركوس إنجازاته في السنوات الأربعة الأولي من حكمه في الدعاية لنفسه وحزبه (الوطني) في الانتخابات البرلمانية التالية (١٩٦٩)، بعد أن بالغت وضخمت فيها أجهزة الإعلام الموجهة، التي تحدثت عن مشروعات ماركوس العملاقة..ولكن الناس لم يشعروا بأثر هذه المشروعات في حياتهم اليومية لسببين: أولهما أن هذه في معظمها مشروعات تحسين للبنية الأساسية وقد شابها فساد كبير وتكاليف باهظة ذهبت إلى جيوب الأتباع والمحظوظين من بطانة ماركوس وأسرته وأسرة زوجته، والسبب الثاني أن تطبيق قانون الإصلاح الزراعي ونزع الملكيات لم يلحق بالإقطاعيات التي يملكها أنصار ماركوس، وإنما لحق بخصومه ومن ثم اعتبروها أداة انتقام لا أداة إصلاح.

على كل حال لقد تمكن الحزب الوطني من الفوز بجميع مقاعد مجلس الشيوخ فيما عدا مقعد واحد ، وجميع مقاعد مجلس النواب فيما عدا ١١ مقعدا، واتهمت المعارضة الحكومة بتزوير الانتخابات على نطاق واسع.. ولكن لم يتحرك الشارع الفلبيني احتجاجا على التزوير .. فيما عدا الطلاب الذين اختبروا في جامعاتهم تدخلا حكوميا غير مسبوق لتزوير انتخابات الاتحادات الطلابية، فلم يستبعد الطلاب أن يكون ما حدث من تزوير في جامعاتهم امتدادا لنمط واحد من أسلوب الحكومة طبق في الانتخابات العامة لإنجاح أنصارهم بغير حق ولا جدارة.

احتشد الطلاب خارج البرلمان انتظارا لانتهاء ماركوس من خطابه الافتتاحي، فلما خرج واجه جمهورا غاضبا أشبعوه هو وزوجته قذفا بالحجارة والزجاجات الفارغة ونشبت معركة بين الطلاب وقوات الأمن استمرت ثلاث ساعات، وبعد هذه الواقعة بثلاث أيام في ٣٠ يناير ١٩٦٩ زحفت مظاهرة حاشدة في مانيلا نحو القصر الجمهوري ومعهم سيارة مطافئ كبيرة جاءوا بها لتحطيم بوابة القصر ليتدفق ألوف الطلاب داخله هاتفين بسقوط الديكتاتور المستبد، ونشبت معركة أخري أشرس بينهم وبين الحرس الجمهوري، الذي قتل ست طلاب وأصاب المئات من المتظاهرين.
كان الطلاب ـ دائما في تاريخ الفلبين ـ هم أسرع فئات الشعب حساسية للظلم والفساد الحكومي وأول الثائرين عليه .. كانوا أصدق من يرصد مشاعر الغضب والكراهية الشعبية لماركوس وأسرته وبطانته ... وكانوا أول من أدرك حقيقية التدهور الاقتصادي وأن أهم مصادر هذا التدهور هو النهب الواسع للأموال العامة.
وإن الإنجازات التي يفتخر بها ماركوس لم تأت من تنمية حقيقية وإنما من مساعدات أمريكية أغدقت بها الولايات المتحدة على عملائها ومن ديون عامة أجنبية تكبل حرية البلاد.
كان ماركوس ينفق ببذخ سفيه من الأموال العامة على أنصاره ومؤيديه، في شكل منح ومرتبات إضافية على استشارات لا ضرورة لها ومشكوك في قيمتها .. ويخلق مبررات لمزيد من الإنفاق على خدمات لا لزوم لها.. وينفق الملايين على مشروعات غير مدروسة ولا جدوى لها سرعان ما تنهار وتندسر..! ومن الناحية السياسية بدأت كثرة من الناس تنتبه إلى أن القواعد العسكرية الأجنبية في الفلبين انتهاك سافر لسيادة البلاد وأن النفوذ الأمريكي يجر الشعب الفلبيني إلى حروب خارجية لا ناقة له فيها ولا جمل.

في هذا المناخ الساخط ازدادت عمليات خطف الأشخاص والسطو المسلح والهجمات الإرهابية بالقنابل لأسباب سياسية .. وجاء غضب الطبيعة متناغما مع الغضب الشعبي في شكل إعصار مدمر سنة ١٩٧١ وفياضانات عارمة سنة ١٩٧٢ جرفت في طريقها ٤٠٠ قتيل وغريق وأحدثت دمارا هائلا. ولكن الانفلات الأمني الواسع أحدث انفلات أعصاب شديد عند ماركوس، بدا في نبرة خطابه التي اتسمت بالحدة وأصبحت تصريحاته تفرق بقوة بين الأنصار والأعداء، حيث خص الأعداء بلعناته وتهديداته فذكر من بينهم الطلاب وزعماء النقابات العمالية وكثيرا من الصحفيين والسياسيين... وصب جام غضبه على المسلمين الانفصاليين في الجنوب وعلى الشيوعيين المتمردين في الشمال، وأخذ يلصق تهمة الشيوعية بكل خصومه السياسيين.

الانقلاب السافر على الديمقراطية:

أدرك ماركوس أن رصيده الشعبي قد نفذ تماما ولم يبق حوله سوي الإمعات والمنافين والانتهازيين من طلاب الثروة والسلطان ومن ثم سولت له نفسه وبطانة السوء من حوله أن يبدأ في تغيير الدستور، ليضمن بقاءه في السلطة أطول مدة ممكنة وليهيئ الطريق أمام توريث الحكم لأفراد أسرته ابتداء بزوجته" إميلدا."
ولكي يحدث هذه التغيرات كان لابد أن يجري تغيرات كبيرة في قيادات الجيش ليحل مكانها قيادات موالية له من مسقط رأسه "ألوكانو" ..

وفي محاولة لتحسين صورته نشر كتابا جديدا ليس ـ في هذه المرة عن حياته ـ وإنما عن فلسفته الجديدة بعنوان "ثورة اليوم والديمقراطية" نقد فيه ما مضي وبشر بنظام جديد سماه "ثورة" ولكن هذه الثورة لا تأتي من الشعب ولا من النخبة ..! فمن أين تأتي إذن!؟
يقول ماركوس إنها ثورة تعتمد على زعيم يقوم بتعليم الناس و تربيتهم ...فالشعب عائلة كبيرة والزعيم المعلم هو أب العائلة ...! وهنا طبعا إسقاط على أن الزعيم هو فرديناند ماركوس . فما دور الحكومة في هذه المنظومة الثورية؟ يقول ماركوس :
الحكومة ليست أكثر من أداة لتنفيذ توجيهات الزعيم ونصائحه ، وذلك لتحقيق الخير العام وليس المصالح الخاصة ...ثم يصف ماركوس هذا النظام الأبوي بأنه هو الديمقراطية الحقة !...كيف هذا ؟... يجيب ماركوس : لأن هذه المنظومة تقوم على سلطة حريصة على تحقيق الصالح العام وعلى شعب مطيع لزعيمه .. ثم يشرح : لن تكون هذه المنظومة قائمة على النخبة وحدها وإلا فقدت صفتها الديمقراطية الثورية ولن تقوم بالشعب وحده لأن بالشعب قصور وجهل يجعله في تطلع دائم إلى المزيد ، ولن تقف تطلعاته عند حد وسيؤدي هذا إلى فوضى وتقويضٍ للاستقرار مما يضطر السلطة إلى إيجاد آليات لتقييد هذه التطلعات الضارة، وقد ينتج عن هذا صدامات غير محمودة العواقب بين الشعب والسلطة.. الدكتاتور المتغطرس مفتون بقوته ، لا يحترم شعبه ولا يثق فيه فهو في نظره إما طفل قاصر أو سفيه ملعون .

بعد صدور هذا الكتاب العجيب لم يعد هناك شك أن ماركوس قد اعتزم أن يطرح الديمقراطية وراء ظهره ، ويحكم الفلبين حكما فرديا مستبدا .. لقد أيقن أنه لا يمكنه أن يعود للرئاسة في أي انتخابات حرة ، فبدأ بسلسلة من الإجراءات والتدابير لتهيئة المناخ المناسب لإعلان نظامه الجديد، حيث أطلق أنصاره لافتعال حوادث إرهابية وإلصاقها بخصومه السياسيين ...وتوالي خطف الأشخاص واختفاؤهم وتواصلت التفجيرات الليلية في مبان غير مسكونة، أسندها ماركوس إلى سناتور أكينوزعيم المعارضة وأنصاره، وفي يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٧٢ أطلق مجهولون النار على سيارة وزير الدفاع ولم يصب أحد بسوء ولكن ماركوس اتخذ هذا الحادث ذريعة لإعلان الأحكام العسكرية وتكشفت في الأيام التالية أهداف ماركوس وأساليبه المكيافيلية بوضوح شديد.

برر ماركوس عمله بأنه يريد القضاء على الإرهاب والفوضى والحفاظ على الأمن والنظام في البلاد وإصلاح الدستور ، واتهم خصومه بالشيوعية ، وأنهم مدعومون بقوى أجنبية ويعملون على تدمير الحكومة بالعنف والدعاية المغرضة، وأضاف ماركوس إلى الخطر الشيوعي والخطر الإسلامي القادم من الجنوب ، حيث يسعى المتمردون المسلمون للانفصال عن الدولة بقوة السلاح .

كل هذا كما يزعم ماركوس :" قد فرض علينا وضع البلاد تحت الأحكام العسكرية وقوانين الطوارئ " . ومع العصي الغليظة لوح ماركوس بالجزرة فقال : " لابد لنا أن نقوم بإصلاح مؤسساتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتطهير الجهاز الحكومي من الفساد والقضاء على الجريمة المنظمة ودعم النمو الاقتصادي "...ثم ينهي ماركوس حديثه بتذكير الناس بأنه الرئيس المنتخب ولديه صلاحيات دستورية تمكنه من اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لإنقاذ البلاد.

فما هي هذه الإجراءات:

- آلاف من الناس الأبرياء قبض عليهم وألقي بهم في السجون...
- منهم سياسيون متهمون بالتآمر ضد نظام الحكم وسياسيون متهمون بتشكيل مليشيات خاصة.
- وسياسيون أخرون كل جريمتهم أنهم جاهروا بنقد ماركوس ونظامه
- وكثير من الصحفيين وقيادات عمالية وطلابية وفلاحية تجرأوا على التظاهر ضد ماركوس .. ولكي يخفي أهدافه الحقيقية ويخلط الأوراق أوعز إلى رجاله بالقبض على عدد من أعتى المجرمين وأشهرهم في جزر الفلبين .

- لم يكتف بذلك وإنما فرض حصارا أمنيا على النشاط العمالي والمؤسسات العمالية واتحادات الطلاب في الجامعات وعلى المسافرين للخارج .. وجمع نصف مليون بندقية ، زعم أنها كانت بحوزة الإرهابيين الذين خططوا لتدمير البلاد..عرضها على شاشة

التليفزيون وفرض حظر التجول ليلا في مانيلا والمدن الأخرى، وهبط على جزر الفلبين ليل حالك الظلام وفجأة تسلط الأضواء على المسرح ؛ ويظهر المهرج الأكبر لإعلان برنامج إصلاحي شامل [للعبور] إلى المستقبل "! روجت له أجهزة الإعلام وأكدت أنه برنامج خضع لدراسة عميقة وسوف يحدث نقلة نوعية في المجتمع الفلبيني لينطلق إلى آفاق غير محدودة من الرخاء العظيم.

أضرب لذلك مثلا مما فعله في أخريات أيامه بالسلطة عندما أصابه مرض عضال وأدرك أنه في طريقه الحتمي إلى القبر ، كان متشبثًا بالسلطة إلى حد الجنون ؛ فإذا كان عليه أن يفارقها ، فلا يصح أن تفارق السلطة أسرته بعد موته . ولذلك زين له شيطان الجشع أن يمارس عملية تزوير كبرى ، ينفق عليها ملايين الدولارات لكي يتم وضع ٤٢ ألف عضو في المجالس المحلية [تُسمّى بارانجيات]، منتشرة بمحافظات الفلبين. وكان يعوّل على هذا الجيش من الأتباع أن يكونوا أعوانا مخلصين له ولأسرته الحاكمة فى الانتخابات العامة اللاحقة سنة ١٩٨٤ والانتخابات الرئاسية التالية سنة ١٩٨٧م .
وكان مقدّرا أن تخوض "إميلدا ماركوس" حرم الرئيس هذه الانتخابات بدلًا منه لأن جميع التقارير الطبية أجمعت على أن ماركوس لن يكون فى حالة صحية تسمح له بالاستمرار فى الحكم ، ذلك إذا قُدّر له أن يعيش.. فقد كان مصابا بسرطان الدم وبالفشل الكلوى الذى استعصى على العلاج ، وكان إبنه الأكبر لايزال فى بداية العشرينات من عمره .و بهذه الحيلة السياسة شعر ماركوس بأنه قد أحكم قبضته على كل شئون البلاد ، وأنه قد مهد الطريق سهلا أمام نجاح خليفته من أعضاء الأسرة فى أى انتخابات قادمة .

كانت " إميلدا ماركوس" فى ذلك الوقت وزيرة للمستوطنات البشرية ، ومعروف عنها فى عقد الخمسينات من القرن العشرين أنها كانت تحمل لقب ملكة جمال الفلبين. وقد كانت في عهد رئاسة زوجها محور كل نشاط نسائى فى ، والداعمة الأولى لحقوق النساء : ترعى عشرات من المؤسسات النسائية ؛ إذ أصبح لكل فئة من النساء نقابة خاصة .. من أشهرها: نقابة الحلّاقات والمدلّكات.. حتى بائعات الهوى أصبحت لهن نقابة تدافع عن حقوق المهنة . وكان هؤلاء جميعا دائما فى مقدمة مستقبليها بالمطار لدى عودتها من الأسفار.. وكُنّ العمود الفقرى للمظاهرات النسائية التى كانت تهتف لها فى شوارع مانيلا .

أما فرديناند الإبن فكان يشغل منصب نائب محافظ " إلوكانو" مسقط رأس أبيه ، بينما عمته (أخت الرئيس) فكانت هى المحافظ .. ثم نصل إلى نهاية السلسلة بذكر " إمى ماركوس" بنت الرئيس التى كانت تتولى رئاسة منظمةٍ "كاباتيان بارانجاىْ" للشباب الفلبينى ..إجتذبت لعضويتها مزيجا من شباب الطبقات الفقيرة والمتوسطة والعليا .. وطلاّب وطالبات من الجامعات .. وكان الهدف الحقيقى لهذه المنظمة هو إشغال هؤلاء الشباب بأنشطة تصرفهم عن المنظمات المعارضة السرية التى أكتسحت الجامعات فى عهد ماركوس ، وكانت الجائزة الموعودة هى إعداد الشباب وتأهيله للعمل بوظائف وأعمال فى القطاعين العام والخاص وإنقاذهم من البطالة التى تنتظر الجميع بعد التخرج .

سارت العملية الإنتخابية فى أول الأمر كما ينبغي لها ؛ حيث فاز مرشحو المعارضة فى كل الدوائر التى حضرها مندوبو الرقابة من أعضاء الحركة الوطنية، وفاز مرشحو الحزب الوطني فى الدوائر التى لم يحضرها أعضاء الحركة ، وكانت النتائج مُرضية على كل حال فقد سجلت المعارضة فوزا بلغ أكثر من نصف مقاعد البرلمان، و انتظر الناس ظهور النتائج ولكنها تأخرت كثيرا على غير عادة حتى يتمكن أعوان ماركوس من طبخها لصالح الحزب الوطني .. فلما أُعلنت رأى الناس الصورة مقلوبة .. حيث حصل الحزب الوطنى على١٢٢ مقعدا والمعارضة ٥٩ مقعداً فقط ، زاد عليها ماركوس ١٧ مقعدا بالتعيين من أنصاره (وهذا جزء من صلاحياته وفقا للدستور المعدّل) وبذلك ضمن ألا يكون فى حوزة المعارضة ٣٣ %من مقاعد البرلمان ، ليسُدّ الطريق أمام محاولة المعارضة إسقاطه.. وكان هذا هو أحد أهداف المعارضة المعلنة خلال الحملة الانتخابية..

فرغم محاولات التزوير وتغيير النتائج فى هذه المرحلة بقى الأثر عند المحللين السياسيين واحدا (فى الخارج كما فى الداخل) ؛ فبمعنى من المعانى ساد الإعتقاد عند المحللين و الأجانب على السواء أن كلا الجانبين قد كسب الإنتخابات ...كيف؟.. يقول المحلّلون أن الرئيس وحزبه الوطنى " ظلّوا مهيمنين على البرلمان.. ومن ناحية أخرى أثبتت المعارضة أنها قادرة على المنافسة والفوز فى الانتخابات عندما تكون حرة ونزيهة .. وأهم من ذلك أيقن المحلّلون أن الاختيار الحقيقي للناخبين رغم الحيل والتزوير كان متوجّها بقوة إلى المعارضة وليس إلى النظام..

أحداث ١٩٨٦ ونهاية الطاغية:

نتيجة للتدهور الاقتصادى المتواصل والضغوط الأمريكية المتزايدة وتصعيد جيش الشعب اليسارى هجماته فى الشمال ، واستمرار استنزاف الجيش فى الجنوب المسلم، واهْتزاز ثقة الأمريكيين فى قدرته على الإستمرار فى السلطة ، أراد ماركوس أن يثبت للجميع أنه لا يزال الرجل القوى القابض على مقدرات الأمور كلها رغم كل التحديات ورغم مرضه.. فأعلن عن انتخابات رئاسية مبكرة.. ولكن فى هذه المرة لم يواجه ماركوس معارضة مشتّتة كالعادة وإنما معارضة ملتحمة موحّدة تحت زعامة "كورازون أكينو" زوجة الزعيم الراحل " بنينو أكينو" كانت حديثة عهد بالسياسة ولكنها أثبتت صلابة وحكمة يفتقر إليها كثير من الرجال ، من ناحية أخرى

تشجعت المعارضة نتيجة لسجلّها الناجح فى الإنتخابات التشريعية سنة ١٩٨٤.. وشعورها بأن الشعب قد طفح به الكيل ، وأنه يريد التخلص من الرئيس المستبد ونظامه القمعى الفاسد.. إنها فرصة نادرة لطرد الرئيس والتخلص من بطانته.. وفى يوم الإنتخابات الرئاسية تجمّع أربعمائة ألف من أنصار الحركة الوطنية لحرية الانتخابات " ومن مختلف الطوائف والشخصيات المستقلّة.. نزلوا جميعاَ إلى الشوارع لمساندة" كورازون أكينو " ومراقبة عملية الإنتخابات، وسجلت الحركة حالات رشاوى وتزوير بالجملة.. ومع ذلك كانت المؤشّرات كلها تتجه إلى نجاح ساحق لكورازون أكينو..إلا أن ماركوس لم يستسلم

وأصرّ على أنه هو الفائز.. وأنه مستمر فى رئاسة الجمهورية مهما كلّفه ذلك من تضحيات ..

هنا تفجر الموقف وزحفت الجماهير نهارا وليلا يهتفون بسقوط الدكتاتور وبطانته وأعلنوا أنهم لن يغادروا أماكنهم حتى يرحل ماركوس عن القصر الجمهوري ويسلم السلطة إلى كورازون أكينو... فى هذا المناخ الملتهب ومشاعر الغضب المتأجّجة إنطلقت فى الجيش شرارة تمرد محدود حيث أعلنت مجموعة من كبار الضباط الانقلاب على نظام ماركوس واعتصمت بأحد معسكرات الجيش فى مانيلا، وأنها ستلتحم مع جماهير الشعب فى أى محاولة لاسقاط النظام..على الفور استجابت الجماهير وزحفت نحو المعسكر المتمرد وأحاطته بسياج هائل من أجسام البشر..

حرّك ماركوس حرسه الجمهورى الخاص، بالدبابات والمدافع لقصف المعسكر والقضاء على المتمردين ، ولكن جدارًا بشرّيا هائلا حال دون تقدم الدبابات ، فقد وجدت القوات الزاحفة أمواجا من البشر تفترش الأرض مستميتة ومستعدة للتضحية بأرواحها .. توقفت الدبابات وجرى حوار تاريخى بين المتظاهرين وبين ضباط الجيش وجنوده.. يمكن أن نتصور بعض ملامحه ، ولكن أحدًا لايستطيع أن يجزم على وجه التحديد ماذا جرى بين الطرفين ؟ ، كانت الأحداث تتسارع بشدة .. وفى مثل هذه المواقف الدرامية النادرة فى تاريخ الوطن يجد الأفراد أنفسهم أمام قرارات مصيرية حاسمة ، ينسون فيها كل شىء آخر إلا هذا الخطر الماثل ..وهكذا وجد الضابط أنفسهم أمام إختيارين : إما أن يلتزموا بالولاء لرئيسهم وتنفيذ أوامره وإحداث مذبحة بشرية ، وإما أن ينحازوا للشعب وينصروه ضد الدكتاتور المريض .. واختار الضباط أن يقفوا إلى جانب الشعب.

فى هذه الأثناء دق جرس الهاتف فى قصّر"ملكانيانجّ" بمانيلا وكان على الطرف الآخر الرئيس الأمريكى يتحدث من البيت الأبيض.. كانت صورة الموقف بكل تفاصيله أمام الرئيس ريجان مع تحذير من رجال المخابرات الأمريكية فى مانيلا بأن الموقف قد أفلت من أيديهم ، وأن حياة الرئيس الفلبينى فى خطر ولابد من تصرّف عاجل لإنقاذ حياته.. وجاءت عبارات الرئيس ريجان مختصرة وحاسمة : "سيدى الرئيس ماركوس إن الموقف يوشك أن يفلت من أيدينا، ولم أعد أستطيع حمايتك .. ونحن نرحب بك فى الولايات المتحدة أنت والأسرة ومن شئت من مساعديك.. وهناك طائرة تتجه الآن إلى القصر لتحملكم.. كما يوجد يختان فى خليج مانيلا لنقل أمتعتكم وسيتولى رجالنا تأمين رحلتكم من القصر إلى الولايات المتحدة". وهكذا إنتهت أُسطورة الدكتاتور ماركوس وأسرته.

كانت حرم الرئيسى الفلبينى تهوى إقتناء الأحذية الجميلة غالية الثمن من أنحاء العالم ، وكان فى حوزتها ثلاثة آلاف زوج من هذه الأحذية النادرة.. وكان عليها أن تختار بين كنزين لتحمل أحدهما فى رحلتها الأخيرة إلى المنفى: كنزً الأحذية أوكنز المجوهرات.. فاختارت المجوهرات... سقطت أسرة ماركوس الحاكمة، وطُويت صفحة سوداء من تاريخ

الفلبين الحافل بالأحداث.. ومع سقوط الدكتاتور الطاغية وحاشيته.. سقط عهد من الفساد والإستبداد والنفاق إلى غير رجعة.

بنينو أكينو المناضل الجسور

أنه المعارض الأجرأ الذى تصدّى لأسوأ نظام دكتاتوري وأكثرها فسادًا في تاريخ الفلبين ؛ فحينما خمدت كل الأصوات المعارضة -بالاضطهاد والقتل والاعتقال- أعلن معارضته متحدِّيًا ماركوس ، وهو في عنفوان جبروته وطغيانه .. كان مطلبه البسيط الذى جمع حوله جماهير الشعب الفلبيني هو عودة الديمقراطية الصحيحة إلى الشعب الفلبيني ، واحترام إرادته في اختيار من يريده للحكم ، بدون تدخّل من السلطة بالاحتيال أوالتزوير.

لقد زرع روح النضال والتضحية في أسرته ؛ فتابعت زوجته كورازون أكينو مسيرته، ووقفت في صفوف الثوار الذين أسقطوا ماركوس .. وقد دفعها الشعب في مرحلة أخرى لترشيح نفسها للرئاسة وساندها حتى نجحت في الانتخابات لفترتين رئاسيتين.. وكذلك حظي ابنهما "بنينو أكينو الثالث" في مرحلة ثالثة ؛ ليفوز بمقعد الرئاسة -عن جدارة- فيما بين سنتي ٢٠١٠إلى ٢٠١٦ م ولم يكن هذا عجيبًا في أسرة ينتمي أفرادها إلى عائلة عريقة اشتهرت بالوطنية والتمسك بالشرف ومبادئ الأخلاق في تاريخ السياسة الفلبينية.

كان "بنينو أكينو" متفوقا متميزا متصدِّرًا لأقرانه منذ نشأته ، ثم عُرف عنه أنه كان أصغر عمدة منتخب في الفلبين وأصغر سناتور منتخب.. لم يكن متطرفا ولا جامدا وإنما اشتهر باعتداله

وحكمته في خطابه السياسي.. يتمتع بذكاء شديد وسرعة بديهة.. ولشخصيته تألُّق وجاذبية جماهيرية غير عادية ، وكان مرشحا من "حزب الأحرار "المعارض أمام "ماركوس" في انتخابات الرئاسة لعام ١٩٧٣ لولا ضربة ماركوس الاستباقية وانقلابه على الدستور سنة ١٩٧٢ حيث ألغى الانتخابات وفرض الأحكام العسكرية.. ووجد "أكينو" نفسه معتقلا في سجون ماركوس يواجه قائمة من الاتهامات الملفقة منها تهمة الاغتيال السياسي..!

لكن هذا المناضل الشجاع -رغم وجوده في المعتقل- استطاع أن يقود حملة انتخابات سنة ١٩٧٨م أجراها ماركوس لجمعية تشريعية مؤقتة.. وكان اسم أكينو على رأس قائمة ضد قائمة "إميلدا ماركوس" المتنافسة على مقاعد مانيلا.. وبالطبع انتصرت قائمة السيدة الأولى بالتزوير..

لم يستمر أكينو طويلا في المعتقل بل خرج (بلا محاكمة!) تحت ضغط من إدارة الرئيس الأمريكي "جيمي كارتر" بحجة إجراء جراحة في القلب بالولايات المتحدة.. وهكذا تمت الصفقة وأصبح زعيم المعارضة الواعدة ورمزها البطل مستقرا في منفاه.

من الأمور المثيرة للنظر بالنسبة للتشابه في توجُّهات الأنظمة الدكتاتورية المستبدة لجوؤها إلى تعديلات دستورية إما لتثبيت أوضاع معينة كالاستمرار في السلطة أو التمهيد لتوريثها لأفراد أسرة الدكتاتور.. وهذا ما فعله ماركوس وبطانته؛ إذ قام بتعديل مادة في الدستور ترفع سن مرشح الرئاسة إلى خمسين سنة.. وهو تعديل مقصود به الحيلولة دون ترشُّح بنينو أكينو ، الذي كان عمره وقت الترشيح ثمانية وأربعين سنة فقط ، فأغلق الطريق أمام أكبر منافسيه وأكثرهم شعبية . ولكن المناضل الجسور لم يفقد الأمل في إنقاذ بلاده من الهاوية التي أوشكت على التردِّي فيها ، فقرر العودة إلى وطنه غير عابئ بالتهديدات التي أرسلت إليه ، وكان مصرعه المأساوي غيلة هو العامل الذي فجر براكين الغضب المكبوت لدى الشعب الفلبيني ؛ انطلقت حشود الجماهير إلى الشارع تهتف بسقوط النظام الفاشي وهي تشعر أنه قد حان الوقت لكي يتخلى الدكتاتور عن السلطة.

هذه المظاهرات المليونية المتواصلة هي التي أغلقت الطريق أمام زيارة كان الرئيس رونالد ريجان يعتزم القيام بها سنة ١٩٨٢م إلى الفلبين ، لتعزيز مركز صديقه ماركوس.. وقد تنبه الكونجرس إلى أن الشعب الفلبيني قد انفلت من عقاله فبدأت الإدارة الأمريكية تتنصل في تصريحات متتالية من تهمة مساندتها لنظام دكتاتوري فاسد!..

الاغتيال أحد أساليب ماركوس:

فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٨٣ تدفق إلى شوارع مانيلا عشرات الألوف من الفلبيّين لتشييع"جثمان سناتور "بنينو أكينو" إلى مثواه الأخير بعد إغتياله وكان هو زعيم المعارضة بدون منازع .. وسرعان ماتحولت الجنازة المهيبة إلى مظاهرة عارمة ، هتفت فيها الجماهير

الغاضبة لأول مرة بسقوط الدكتاتور ماركوس ونظامه الفاشيّ..كأن الجماهير بحدْسها الفطرى كانت على يقين بمسؤولية ماركوس عن هذا الإغتيال ..

لم تكن هذه أول حادثة إغتيال سياسى لمعارضى السلطة الحاكمة ، فقد تواترت عمليات تصفية المعارضين منذ عام ١٩٧٢ عندما ألغى ماركوس البرلمان وألغى الاحزاب وأعلن الاحكام العسكرية وحظر التجول فى مانيلا ..كانت تقارير الأمن (كعادتها) تنسب هذه الحوادث إلى أسباب ملفّقة .. أو تعتبرها حوادث عارضة.. أو أنها نتيجة صراعات ومنازعات محلّية بين عائلات متنافسة .. ولكن إغتيال " بنينو أكينو " كان فى وضح النهار وأمام عدسات المصورين والصحفيين .. و العديد من أنصار الرجل الذين ذهبوا إلى المطار للترحيب به يوم عودته إلى الوطن .

ومن ثمّ لم تكن الشرطة لتستطيع تلفيق الحقائق .. فقد إرتفعت صيحات منظمات حقوق الانسان فى الداخل والخارج لإجراء تحقيق سريع فى حاثة الإغتيال ، وكانت أصابع الاتهام تشير بقوة إلى أتباع الرئيس ماركوس فى القوات المسلحة ، مما دفع الكونجرس الأمريكى للمطالبة بتحقيق عاجل ومستقل .. خصوصا وأن " بنينو أكينو " -باعتباره زعيم المعارضة الفلبينية- كان الكونجرس قد إستضافه قبل عودته إلى بلاده ليتعرّف منه على رأيه فى مستقبل العلاقات الفلبينية الامريكية .. فقد كانت أمريكا قلقة على قواعدها العسكرية فى الفلبين فى حالة سقوط ماركوس واستيلاء الشيوعيين على الحكم .
ونلخِّص فيما يلى النقاط الاساسية فى خطاب " أكينو " أمام الكونجرس:

١- تمر الفلبين بأزمة سياسية واقتصادية خطيرة .. والقمع الأمنى هو الأسلوب السائد فى معاملة المعارضة الوطنية .
٢ – الفساد المتفشّى واصل إلى أعلى مستويات السلطة .
٣- سوء الإدارة فى الاقتصاد والسياسة مع القمع الأمنى أدى إلى اندفاع الفلبنيين إلى المعارضة وعلى الأخص المعارضة المسلحة .
٤ – تسىء الحكومة إستخدام الجيش على نطاق واسع.. فقد زجّت به فى مغامرات عسكرية خاسرة ضد رجال حرب العصابات اليساريين الذين يسيطرون على ثلثى الأراضى فى شمال الفلبين.. وضد المسلمين الذين يسيطرون على الجنوب .
وما كان هذا التمرد الواسع أن يحدث لولا إنعدام الرؤية السياسية الصحيحة لنظام حكم عنيد فاقد للشرعية ، فاقد للحكمة .

وينتهى أكينو فى خطابه إلى حقيقة أن ماركوس بسلوكه العنيد قد أغلق الباب أمام الإنتقال السلمى والديمقراطى للسلطة .. أغراه على ذلك :

أنه يملك زمام سلطة واسعة ويسيطر على النظام القضائى والإعلامى.. ويتحكم فى شريحة ضخمة من ثروة البلاد .. وفوق كل هذا يحظى بدعم مالى وعسكرى وسياسى من الولايات المتحدة ...

"إن ماركوس يقترب الآن من سن السبعين ويعانى من أمراض خطيرة.. والذى يمارس السلطـــــة الحقيقية بأسمه زوجته إميلدا وبعض القيادات العسكرية وفريق من التكنوقراطيين الموالين لأسرة ماركوس .. وقد دب الصراع الخفى بينهم على خلافة ماركوس .. وقد ينجح الجيش فى الاستيلاء على السلطة لتسقط البلاد فى مزيد من العنف والفوضى..."

مزاعم ماركوس الإصلاحية:

كان ماركوس من أمهر المتحدثين عن الاصلاح بينما كل أعماله تسير فى الاتجاه المعاكس.. حتى أصبحت الفلبين سجنا كبيرا للشعب الفليبيني.. فقد امتلأت معتقلا ته بالأبرياء والمضطهدين .. وأصبح التعذيب الوحشى روتيناً يوميا فى السجون والمعتقلات .. لطالما تشدق ماركوس بأنه لن يقصف قلما ناقدًا ولن يسكت صوتًا معارضًا وكان صادقا فيما وعد! فقد كفاه زبانيته مشقة قصف الأقلام وإسكات الأصوات ، لأنهم أخْلوْا الساحة من كل معارض ، إما بالاعتقال بلا محاكمة وإما بالاختطاف إلى مصير مجهول، ومن بقى آثر النفى الاختيارى.. وهنا تتجلى عبقرية الطاغية وتتكشف مواهبه الكامنة..

وقصة ماركوس مع الإصلاح قصة مثيرة تستحق التأمل ؛ فقد أعلن عن برنامج إصلاحيّ فى زفّة إعلامية كبيرة كان قد هيأ لها جوقة من الإعلاميين والصحفيين لتحلّ محل الطاقم القديم الذى استهلك أغراضه وانتهت مدة صلاحيته.. جاء الطاقم الجديد أكثر حماسا ليبشّر بعهد جديد وفكر جديد.. وبرزت أسرة ماركوس لتبدو فى الإعلام اليومى معنيّة بمشاكل الجماهير الكادحة وتخفيف المعاناة المعيشية عن كاهلهم.. جعل ماركوس على رأس برنامجه مشروعا للإصلاح الزراعي، و جعل زوجته على رأس وزارة أنشأها خصيصا لتنفيذ هذا المشروع (باسْم وزارة المستوطنات البشرية) ..

ومن أجل هذا ذهبت السيدة إمِلْدا إلى إسرائيل لتطَّلع على العبقرية الصهيونية فى صناعة المستوطنات، فلما عادت كان برفقتها عدد من خبراء الاستيطان الإسرائيليين كمستشارين لها فى الوزارة.. ومن ثم بدأت عملية تهجير كبرى لمسيحيين من الشمال المكتظ بالسكان إلى المناطق الجنوبية لتمليكهم أراضى زراعية أنتُزعت من أصحابها المسلمين وتم إجلاؤهم عنها بقوة الجيش والمليشيات المسيحية المسلحة..

كان أمل ماركوس بتنفيذ هذا المشروع أن يضرب عصفورين بحجر واحد إذْ كان يعتقد أن معالجة مشكلات الفقر والبطالة فى الشمال المسيحى سيحول دون إنتشار الحركة الشيوعية المسلحة فى صفوف الفلاحين.. وبالاستيلاء على أراضى المسلمين فى الجنوب يزعزع الاستقرار فى مجتمعاتهم ويضعف قدرتهم على الصمود ويفصم عُرى التعاون بين قيادة المقاومة وبين قواعدها الشعبية.

وبدون الدخول فى تفاصيل برنامج ماركوس الإصلاحي نكتفي بالإشارة إلى أهم ملامحه على الوجه التالي: إعادة هيكلة للنظام المالى، وتيسيرات جمركية وتسهيلات قانونية وإجرائية لصالح المستثمرين الأجانب ، وتنفيذ تعليمات البنك الدولى في الخصخصة والقضاء على القطاع العام و الاعتماد على القروض والمساعدات الأجنبية وتوسُّع كبير فى بناء الفنادق الفاخرة والخدمات السياحية التي تشمل الخدمات الجنسية .

وكبديل للمجلس النيابى أنشأ مجموعة من التكنوقراطيين إلى جانب مجلس وزرائه المكون من تكنوقراطيين أيضا.. تركّزت مهمة هذه المجموعة فى بحث واقتراح ما يلزم من إصلاحات، تُعرض على السيد الرئيس فيصدر بها قرارات نافذة المفعول.. وقد علّق كثير من المراقبين فى الخارج على هذا البرنامج الإصلاحى بأنه موجّه لتحقيق مصالح ماركوس وأسرته وبطانته.. أما فى الداخل فقد اختلفت المواقف اختلافاً كبيرًا نستطيع أن نميزّ بينها ثلاثة اتجاهات رئيسة :

١- إتجاه قلة من المسيحيين اقتنعوا بأن البلاد فعلا كانت على حافة خطر الانهيار والوقوع فريسة فى براثن الشيوعية.. واعتبروا ماركوس وبرنامجه المخلّص الوحيد من هذا الخطر الداهم..

٢- إتجاه آخر أوسع انتشارا بين المعارضين الذين رفضوا منطق ماركوس وبرامجه الزائفة ولم يصدقوا أن لديه رغبة حقيقية فى الإصلاح ، فماركوس بسياسته وأعماله هو الذى أوصل البلاد إلى هذه الحالة البائسة ، وأنه فعل ما فعله لأنه أصبح متأكدا أنه لن يستطيع البقاء فى السلطة فى إطار نظام ديمقراطي دستوري ، وأنه فرض قوانين الطوارئ والأحكام العسكرية لخدمة أطماعه وليس لأن الدولة فى خطر من الأعداء كمايزعم ، و أكّد المعارضون أن الأمريكيين بصفة خاصة يخشون – مع الديمقراطية- أن يتسلل إلى السلطة قوى يسارية ، ويشعرون أن استمرار حكم ماركوس الدكتاتورى هو الضمان الأكيد لاستمرار مصالحهم فى الفلبين ونهب ثرواتها لصالح شركاتهم الكبرى. وهكذا أصبح ماركوس فى نظر أنصاره مصلحا ومنقذا، وفى نظر معارضيه شيطانًا رجيمًا ..

٣- تبقى كثرة من الفلبينيين علّقت الحكم على هذه السياسات الجديدة لترى ماسيترتب عليها فى أرض الواقع..

خلال عقد من الزمن من ١٩٧٣ إلى ١٩٨٣ تبلورت نتائج تطبيق هذه السياسات الإصلاحية، وإذا بالناس ينتقلون تدريجيا من حالة الأمل الكامل التى أشاعتها وسائل الإعلام إلى حالة من القنوط الكامل، وقد تم ذلك على ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى من ١٩٧٣-١٩٧٥:

فى هذه المرحلة طغت على الإعلام والصحافة أخبار تطبيق الإصلاح الزراعى ، وعما سُمى بالثورة الخضراء وزيادة الانتاج الزراعى وتوفير الأرز (الغذاء الرئيسيى فى جزر الفلبين) مع الاهتمام المتزايد بالتطور الصناعى..

وإقتصرت عمليات النقد الصحفى على بعض السياسات الهامشية :
من زيادة أسعار السلع ، وهجمات قوات الأمن على الكنائس الريفية بحجة البحث عن أسلحة للمتمردين الشيوعيين، ولعل أبرز مافى هذه المرحلة التوسّع فى العمليات العسكرية ضد المسلمين فى الجنوب.

المرحلة الثانية من ١٩٧٦ – ١٩٨٠ :
إنتقل الإهتمام الحكومى من الريف إلى المدن والتركيز على رأس المال الأجنبى ومشروعاته الاستثمارية وكانت أموال المساعدات الأمريكية وقروض البنك الدولى تُنفق ببذخ شديد على مشروعات.. أكبر المستفيدين بها أسرة ماركوس وأسرة زوجته وأتباعه من جنرالات الجيش و الشرطة.. من أبرز ما نلاحظه فى هذه المرحلة ، إزدياد سطوة القوات المسلحة على جبهتين: مواجهة التمرد الشيوعى فى الشمال ، وما وصف بالانفصال الإسلامي فى الجنوب، كما نلاحظ أن الكنيسة الكاثوليكية بدأت تتحدى توجّهات ماركوس وتكشف عن فشل مبادراته وتنتقد المبادئ والقيم التى تروّج لها وسائل إعلامه ومنها الترويج للخدمات الجنسية فى الإعلانات السياحية..

المرحلة الثالثة من ١٩٨١- ١٩٨٣:

يبدو أن نظام ماركوس قد بدأ يشعر بالثقة فى نفسه وماحقّقه من سيطرة على كل القوى السياسية والاقتصادية والإعلامية فى البلاد، و أصبح الرئيس ماركوس مطمئناً إلى أنه قد نجح فى تمزيق المعارضة وتشتيت قياداتها بالنفى أو السجن .. وبثّ الفُرقة بين الجميع ، ومن ثم بدأ يتحول إلى نوع من التطبيع السياسى لإنهاء قوانين الطوارئ والدعوة إلى ماسمّاه بالجمهورية الجديدة .

أزعم أن الدكتاتور وبطانته – فى العادة – مصابون بعمى الألوان فلا ترى عيونهم إلا ما يحلو لهم من ألوان الصورة فلا يرون ألوانا أخرى؛ الإنسان السوئ -فى علم النفس- يستوعب الموقف بكل تفاصيله ويستجيب له استجابة ناجحة.. ولأن الدكتاتور وبطانته لا يفْتأون يردّدون نفس الأكذوبة.. وتظل وسائل إعلامهم تُردّدها معهم ليل نهارحتى يصدقوا فى النهاية أن أكذوبتهم هى الحقيقة .. فهل تذكرون قصة جحا الذى كذب على الصبية الذين ضايقوه وهم يتبعونه فى كل مكان فقال لهم : أسرعوا فإن هناك وليمة حان وقتها وكلكم مدعوّون إليها ، فصدّقه الصبيان وذهبوا إلى البيت الذى أشار إليه فى آخر الحارة فلما رأى الصبية يدخلون ولايخرجون صدّق جحا كذبته وظن أن هناك وليمة حقيقية فتبعهم إليها حتى لاتفوته الفرصة...!

مثل هذا الوهم كان وراء محاولة التطبيع التى بدأها ماركوس ، أما الجزء الآخرمن الصورة فيظهر فى التطورات الآتية:

إنهارت كل المشروعات الإقتصادية التى بدأها ماركوس وأعوانه فى المرحلة السابقة، وتراجعت العوائد من التصدير؛ إما لترجع فى الإنتاج نفسه أو انخفاض فى أسعار المنتجات المحلية فى السوق العالمية، ولعل أبرز مافى هذه المرحلة هو تصاعد أعباء خدمة الديون

الخارجية وفشل مشروعات التنمية الاقتصادية التى روّج لها فريق التكنوقراطيين تنفيذًا لروشتة الإصلاح المفروضة من البنك الدولى وصندوق النقد الدولي..

كل هذا كان من شأنه أن يضيّق دائرة الحركة والمناورة أمام نظام ماركوس ومن ثمّ تحول الكثير من مؤيديه إلى المعارضة.. وتحول النقد الناعم إلى معارضة رافضة سافرة.. وتحوّل القانطون والمثاليون إلى المقاومة العنيفة أو المسلحة.. وزادت عزلة النظام وضاقت حلقة الأعوان والمقربين الذين كانوا يعتمدون على ولاء الجيش وعلى تدفق المساعدات والاستثمارات الأجنبية فلم يعد المُقْرِض الأجنبى يثق فى استقرار النظام.. وبدأ التذمر يتردد فى القوات المسلحة خارج مانيلا.. تقلصت دائرة النظام كله ليستند فقط على شخصية ماركوس العارية..

جوهر التطبيع ومحتواه :

لفهم حقيقة الأوضاع في أواخر حكم ماركوس أعرض النقاط الآتية لأنها تصور لنا [سيناريو] مألوفا لدينا مثيرًا للدهشة:

١- فى١٧ يناير ١٩٨١ أعلن الرئيس ماركوس نهاية قانون الطوارئ الذى استمر ثمانية أعوام وألغى المحاكم العسكرية ، و أنهى الاعتقالات والمحاكمات العسكرية للمدنيين فى كل مناطق الفلبين فيما عدا مناطق المسلمين وألغى الاعتقال بدون اتهامات أو محاكمات ، وأفرج عن مجموعة من المعتقلين وأعاد السلطات التشريعية إلى المجلس الوطنى المؤقت الذى أقامه ، ولكنه احتفظ بحقه فى إصدار قرارات.. كما أبقى على القرارات الاستثنائية التى صدرت خلال فترة قانون الطوارئ سارية المفعول .. فماركوس داهية لا تخلو جعبته من الحيل السياسية والقانونية وليس بحاجة إلى ترزية للقوانين [كما في مصر] ٠ لأنه ترزى عبقرى.. يأخذ بشماله ما أعطاه باليمين، يلغى قانون طوارئ ويملأ الفراغ الذى خلفّه بسلسلة من قرارات وإجراءات أخرى تؤدى نفس الغرض.

٢- وافق المجلس التشريعي المؤقت على التعديلات الدستورية فى جلسة واحدة.. ومن هذه التعديلات مادة تمنح الرئيس ومن يعملون تحت إمرته حصانة برلمانية لتصرفاتهم أثناء أو بعد انتهاء مدة الوظيفة (والاحتياط حصافة واجبة)..!

٣- بدأت الحكومة وحزبها (الوطنى) تهيئة الأجواء للانتخابات القادمة بقرار جمهورى يمنح الأراضى التى بنى عليها الفقراء مساكن عشوائية على أطراف مدينة مانيلا مجانا، ووزع منحة مقدارها ٧٥٠٠ دولارا لكل رئيس مجلس محلى رشوة مقدّمة لخدمات انتخابية منظورة.. (لم تمنح لأعضاء الحزب فى البرلمان لأن البرلمان فى إجازة إجبارية).. قاطعت الاحزاب الإنتخابات الرئاسية فلم يترشح أحد منهم أمام ماركوس بعد أن أسقط - ضمن تعديلاته الدستورية- حق زعيم المعارضة ورمزها" بنينو أكينو" فى الترشيح ، على النحوالذى ذكرناه سابقا..

٤- ولكى تأخذ الانتخابات الرئاسية شكلها الديمقراطى إستمال ماركوس بعض الشخصيات السياسية الهامشية لترشيح أنفسهم أمامه، وكانت شخصيات نكرة أو منكورة فقد كان لأحدهم سمعة سيئة ، إذ اشتهر عنه أنه صاحب الاقتراح الهزلى بضم الفلبين إلى الولايات المتحدة كولاية رقم ٥١ ..أفرج ماركوس عن بعض المعتقلين السياسيين إظهارا لحسن النية.. وطالب الناخبين ألا يستمعوا إلى الأصوات الناشذة التى تدعو لمقاطعة الانتخابات ووعد بأن الانتخابات ستكون حرّة وبريئة من أى تدخلات حكومية .. ولكن تحدث مفاجأة لم تكن فى الحسبان: ففى مدينة زامبوانجا بجنوب الفلبين وبها المحافظ الوحيد الذى لم يكن من الحزب الوطنى الحاكم هو "قيصر سيزار كليماكو"[مسلم] كشفت الصدفة- أثناء حملة تفتيش على الفنادق- وجود موظفين رسميين مسؤولين عن اللجان الانتخابية فى المدينة وبحوزتهم أوراق انتخابات فى صناديق مُجهّزة للتزوير.. ثم يتلو ذلك مباشرة مصادفة أخرى أوقع.. فقد تمت تصفية المحافظ المسلم على الفور (يرحمه الله).
ورغم كل شئ انتهت المهرجانات بفوز ماركوس بأغلبية كبيرة .. !

٥- عين ماركوس مجلس وزراء جديد على رأسه " سيزار فيراتا " وهو تكنوقراطى معروف وكل وزرائه من نفس الطبقة اللّاسياسية . ثم عين طاقماً جديدا لإدارة بعض المؤسسات المالية ، وفى الجيش عين ذراعه الأيمن ومدير عام مخابراته " فابيان فير" رئيسا لهيئة أركان القوات المسلحة مع الاحتفاظ بمنصبه كرئيس للمخابرات .

الرضا الامريكى السامى :

نالت هذه التغييرات إستحسان الإدارة الامريكية وأثنت على الرئيس ماركوس ، حيث هنأه وزير الخارجية " ألكسندر هيج " على النصر العظيم .. وحضر نائب الرئيس الامريكى " جورج بوش الأول " إفتتاح الجمهورية الجديدة وامتدح إلتزام ماركوس بالمبادىء الديمقراطية والاجراءات الديمقراطية .. ! ولتأكيد الرضا السامى دعا الرئيس ريجان ماركوس وأسرته لزيارة رسمية فى سبتمبر ١٩٨٢ ، اشتملت الزيارة على عدد من الاستقبالات واللقاءات الرسمية ..هللت لها الصحافة القومية والإعلام الفلبينى .. كما شهدت الزيارة عددا من الاتفاقات الاقتصادية والعسكرية من ضمنها منحة بلغت ٢٠٤,٥ مليون دولار لانشاء مفاعل نووى .. كما وعد ريجان بإعادة النظر والتفاوض بشأن القواعد العسكرية الأمريكية فى الفلبين فى موعد أقصاه ديسمبر ١٩٨٣م.

مسلسل التزوير مستمر حتى النهاية:

أجرى ماركوس عملية شبه انتخابية لاختيار ٤٢ ألف عضو فى المجالس المحلية (تُسمى بارانْجايات) فى أنحاء الفلبين .. وكان يعوّل على هذا الجيش من الأتباع أن يكونوا أعوانا مخلصين له ولأسرته الحاكمة فى الانتخابات العامة اللاحقة سنة ١٩٨٤ والانتخابات الرئاسية

التالية ســـنة ١٩٨٧ . وكان مقدّرا أن تخوض "إميلدا ماركوس" حرم الرئيس هذه الانتخابات بدلا عنه لأن أطباء ماركوس قرروا أنه لن يكون فى حالة صحية تسمح له بالاستمرار فى الحكم ، ذلك إذا قُدّر له أن يعيش.. فقد كان مصابا بالسرطان وبالفشل الكلوى، وكان إبنه الأكبر لايزال فى بداية العشرينات من عمره لا يصلح للترشيح .

بهذه الإجراءات شعر ماركوس بأنه قد أحكم قبضته على كل شئون البلاد ، وأنه قد مهد الطريق ســـهلا أمام نجاحه ونجاح خليفته من أعضـــاء الأســـرة فى أى انتخابات قادمة : كانت زوجته الجميلة " إميلدا " فى ذلك الوقت وزيرة للمستوطنات البشرية (كانت فى عقد الخمسينات ملكة جمال الفلبين) وإلى جانب ذلك كانت محور كل نشاط نسائى فى الفلبين ، والداعمة الأولى لحقوق النساء : ترعى عشرات من المؤسسات النسائية.. وفى كنفها أصبح لكل فئة من النساء نقابة : نقابة الحلّاقات ونقابة المدلّكات.. حتى بائعات الهوى أصـــبحت لهن نقابة تدافع عن حقوق المهنة...كان هؤلاء جميعا دائما فى مقدمة مستقبليها بالمطار لدى عودتها من أسـفارها الكثيرة وكُنّ العمود الفقرى للمظاهرات النسائية التى كانت تهتف لها فى شوارع مانيلا .

أما فرديناند الإبن فكان يشغل منصب نائب محافظ " إلوكانو " مسقط رأس أبيه ، بينما عمته (أخت الرئيس) فكانت هى المحافظ .. ثم نصل إلى نهاية السلسلة بذكر " إمى ماركوس " بنت الرئيس التى كانت تتولى رئاسة منظمةٍ "كاباتيان بارانجاىْ " للشباب الفلبينى على غرار منظمة الشـــباب الســـوفيتية "كومســـومول" إجتذبت لعضـــويتها مزيجا من شـــباب الطبقات الفقيرة والمتوسـطة والعليا وطلاب وطالبات الجامعات .. وكان الهدف الحقيقى لهذه المنظمة هو إشـغال هؤلاء الشباب بأنشطة تصرفهم عن المنظمات الشيوعية السرية التى أكتسحت الجامعات فى عهد ماركوس ، وكانت الجائزة الموعودة هى إعداد الشـــباب وتأهيله للعمل بوظائف وأعمال فى القطاعين العام والخاص وإنقاذهم من البطالة التى تنتظر الجميع بعد التخرج . ..

الحصـاد المر والاقتصاد المنهـار:

لا الإصـــلاحات المالية ولا تيســـير الإجراءات أمام المســـتثمرين الأجانب ولا وزراء ماركوس التكنواقرطيون ولا الشـعارات البراقة ولا التهليل الإعلامى .. لاشـيىء من هذا كله إسـتطاع أن يخفى الحقيقة المُرّة ، وهى أن إقتصاد ماركوس يتداعى.. وأن نظامه متهرّئ وأن سمعته متردية .. فقد أنشب سرطان الفساد أظافره فى النخاع .

تفجرت فضـــيحة إعلامية على أثر اختفاء رجل أعمال هرب مُخلّفا وراءه ديونا بنكية قدرها ٧٠ مليون دولار .. هذه الواقعة على صـغر حجمها أظهرت هشـاشـة النظام الاقتصـادى وفسـاد السـلطة .. وكشـفت عن أتباع النظام المدللين عندما توالت وقائع الهروب من الديون البنكية بالمليارات وانهارت شركات صناعية كبرى .

فى يناير ١٩٨١ نشرت " مجلة وول ستريت الأسيوية " موجزا لدراسة قام بها البنك الدولى أظهرت قلقه بالنسبة لسياسة نظام ماركوس الإقتصادية وسوء الإدارة والاضطراب السياسى .. ولم يكن البنك يثق فى إحصاءات وأرقام حكومة ماركوس ، ولذلك لم يأخذ بها فى دراسته ، خصوصا فيما يتعلق بعجز الميزان التجارى نظرا للانخفاض الحاد فى الصادرات وارتفاع تكاليف الديون الخارجية .. فإلى جانب انخفاض أسعار الصادرات الرئيسية مثل جوزالهند والموز والسكر والنحاس فإن ثلثى هذه الصادرات مصدره جزيرة مندناو التى يشن على سكانها المسلمين جيش ماركوس حروبا طاحنة . كذلك انخفضت مبيعات قطاع الالكترونيات والملابس إلى الثلث وأعقب ذلك تدهور فى الاستثمارات وزيادة الديون .. ووصلت نسبة البطالة إلى ٢٥ % من السكان .

إنعكاسات التدهور الاقتصادى على الوضع العام :

١ – كان ماركوس يظن مخطئا أن وزراءه التكنوقراطيين سيعالجون كل مشاكله وقد حاولت هذه الوزارة إعادة الاستقرار الاقتصادى عن طريق الدعم المالى الخارجى .. وزيادة القروض .. واستجداء الاستثمارات الأجنبية والخصخصة فلم تفلح .. والسبب بسيط.. ذلك لأن المركّب الكيماوى الذى تتفاعل فيه برامج التنمية التكنوقراطية مع توجهات وشروط البنك الدولى لابد أن يؤدى إلى الفشل كما حدث فى كل بلاد العالم الثالث وليست الفلبين بدْعًا بينها.

الذى ضخم حجم الكارثة هو إنشغال ماركوس باستمراره فى السلطة والترتيب لتوريثها لزوجته وأولاده من بعده ، ومن ثم غابت عنه أبسط البديهات وهى أن أى إصلاح أو تقدم اقتصادى لايمكن أن يتحقق فى ظل فساد سياسى واضطراب أمنى، وغياب للحريات العامة .

٢ – بحلول ١٩٨٣ لم يعد السخط الشعبى قاصرا على الطبقات الفقيرة وإنما تسرّب إلى بعض رجال الأعمال الذين أغضبهم إمتيازات المحاسيب والأقارب ، وإصرار البنك الدولى على ضرورة فتح البلاد على مصاريعها أمام رأس المال الاجنبى والتجارة الخارجية بلا شروط أو قيود.. مما ألْحق أضرارًا بالغة بالإنتاج الوطنى والصناعة الوطنية .. هؤلاء هاجموا رئيس الوزراء " فيراتا " هجوما عنيفا فقدّم إستقالته .. ولكن رفضها ماركوس .. وما كان له أن يقبل وهو يعتقد أن هذه آخر قشة يتشبّث بها وهو موشك على الغرق..!

٣ – مع غياب الديمقراطية وانْحسار التأييد الشعبى للحكومة إزدادت عزلة النظام وتعاظم إعتماده على القوات المسلحة وعلى الأخص جهاز المخابرات الذى يرأسه الجنرال "فابيان فير" الذى رقّاه أيضا إلى وظيفة رئيس هيئة الأركان العامة ونائبًا لوزير الدفاع ، وأطلق يده فى إحداث تغييرات ثورية بالجيش .. وكان هذا ثانى مسمار يدقه ماركوس بيديه فى نعشه ، بعد إغتيال زعيم المعارضة " بنينو أكينو "

رأينا -فيما سبق- أزمة اقتصادية خانقة تبلورت سنة ١٩٨٣م فى عجز الحكومة الفلبلينية عن تسديد أقساط ديونها الخارجية، وإنهيار التصدير وتراجع الدخل القومى، حتى أن الحكومة لم تكن تملك من العملات الاجنبية إلا مايكفى لاستيراد الزيت وبعض مواد الطعام ، وانْخفض الإنتاج القومى إلى أدنى مستوى وصل إليه منذ الحرب العالمية الثانية ، وذلك بفضل سياسات ماركوس الإصلاحية ..! وجهود وزرائه من التكنوقراط ، وبفضل النهب والإحتكارات الزراعية لمحاصيل جوز الهند والسكر والحبوب التى تركزت فى حفنة من أسرة الرئيس ماركوس وأعوانه المقربين.

هذه البلاد التى تزخر أرضها بالثروات الطبيعية وتملك أربعين مليون فدان -بين منزرعة بالفعل أو قابلة للزراعة- يعانى شعبها من الجوع ، ويبلغ حجم ديونها الخارجية فى ذلك الوقت [٢٦] بليون دولار ، ظلت فى زيادة متصلة حتى جاوزت [٦٥] بليون دولار . كل ذلك بسبب دكتاتور مستبد لاهمّ له إلا البقاء فى السلطة وتوريثها من بعده لزوجته وأبنائه ، وبسبب آخر مرتبط بهذه الرغبة العارمة وهو الخضوع الكامل لتعليمات البنك الدولى والإستسلام للإدارة الأمريكية والنفوذ الأمريكى..!

الجيش الفلبينى كفاعل سياسي:

عندما يَرِدُ إسم الجيش نتذكر أن وظيفته الأساسية هى الدفاع عن البلاد وحماية أراضيها من أى عدوان خارجى، وأن ولاءه إنما يكون للوطن لا للأشخاص، ولكن ماركوس كانت له رؤية أخرى فقد كان يرى أن ولاء الجيش ينبغى أن ينصرف إليه ، وأن يتحول ألى سياج حصين لحماية مشروعه الخاص فى دوام السطلة وتوريثها لاسرته .. والعجيب أن تاريخ الفلبين الحديث كله ليس فيه أسرة حاكمة سبقت أسرة ماركوس حتى نقول أنه ينسج على منوالها . فما الذى فعله ماركوس بالجيش ؟

١ – كان ماركوس حريصا على أن يخصّ بالترقيات فى المراكز العليا ضباطا ينتمون إلى مسقط رأسه (أى من محافظة ألوكانو) ... بصرف النظر عن الكفاءة والجدارة .. وذلك ليضمن ولاء قيادات الجيش له شخصيا ... وكان ماركوس يستعدّ بهذا الإجراء لفرض قوانين الطوارئ وحكم البلاد حكما فرديّا .. وكان يحتاج إلى من يسانده فى ذلك ..
من الطبيعى أن يعترض بعض القادة المخلصين لبلادهم والذين يهمهم الحفاظ على الولاء الأصلى للجيش وعلى الكفاءة المهنية لضباطه ، وقد اعْترض بالفعل على هذا الأسلوب الجديد فى الترقيات الجنرال " رافائيل أليتو " فمنحه ماركوس وظيفة دبلماسية فى الخارج وتخلّص منه...

٢ – لاحظ النقّاد زيادة مطّردة فى مرتبات الضباط المحيطين بماركوس ، ولاحظوا وجود إمتيازات مختلفة لهؤلاء الضباط بعد إعتزالهم الخدمة إذ كانوا يُمنحون وظائف مدنية أو وظائف بالخارج ..

٣ – جلب ماركوس إلى مانيلا مجنّدين إلوكانيين (يعنى من بلدياته) للعمل فى قوات الحرس الجمهورى الخاص به .. وبذلك أحاط ماركوس نفسه وأسرته وأعمدة نظامه برجال ومؤسسات حراسة وقوات عسكرية سيطرت على مدينة مانيلا بأسرها .. وأصبح كل هؤلاء تحت قيادة الجنرال " فابيان فير" الساعد الأيمن لماركوس .. وشكّل الجميع منظومة من نخبة محظوظة ومتميزة .. وزيادة فى الإحتياط عيّن الجنرال " فير" عناصر مواليه للرئيس فى جميع وحدات الجيش خارج مانيلا ليكونوا عيونا له فى كل قطاعات الجيش الفلبينى .. وبذلك شعر ماركوس أنه قد أصبح فى حصن حصين من أى إنقلاب عسكرى .

وسوف تثبت الأيام أن هذه الاستراتيجية كانت قصيرة النظر أدّت فى نهاية الأمر إلى نتائج عكسية ، وإلى إنشقاقات بين القيادات العليا فى الجيش ، وانشقاقات أخرى بين كتلة الجيش فى مانيلا من أتباع ماركوس وكتلة الجيش الأخرى خارج مانيلا.. التى وقع عليها كل المغارم والمخاطر ، فقد زج الدكتاتور بها فى معارك لا نهاية لها مع المتمردين الشيوعيين فى مرتفعات الشمال ومع الإنفصاليين المسلمين (كما يسمّيهم ماركوس) فى أحراش الجنوب .

ولكى يواجه ماركوس هذه الاخطار رفع عدد القوات المسلحة من ٥٤ ألف إلى ١٥٠ ألف . ثم حاول تحييد حركة التحرير الإسلامية فى الجنوب ليفرغ مؤقّتا للتمرد الشيوعى ، حيث تظاهر برغبته فى المصالحة ومعالجة المشكلة سياسيا مع "جبهة تحرير مورو" ، وذهبت إميلدا ماركوس إلى ليبيا تطلب وساطة معمر القذافى مع الجبهة ، ووقّعت معه على (إتفاقية طرابلس) .. وما نكتفى بذكره هنا هو أن ماركوس لم ينفذ منها بندا واحدًا.. بل إنتهز فرصة الهدنة ليحدث إنقساما فى جبهة التحرير لتصبح جبهتين بدلًا من جبهة واحدة قوية...

وهكذا نرى أمامنا فى ماركوس شخصية مكيافيلّية (تؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت منحطة) .. شخصية أنانية عنيدة لاحدود لعنادها وأطماعها .. وكان سلوك هذه الشخصية وراء تفكك الجيش وفساد النخبة ومعاناة شعبه الذى مزقته الحروب والاضطرابات الأمنية والتدهور الاقتصادى ، وتشرذُمِ زعمائه وضعف أحزابه وتناحر قياداتها على فُتات المغانم التى كان يلوّح بها ماركوس من وقت لآخر حتى أصبحت الأحزاب التقليدية ألعوبة فى يد الدكتاتور وأتباعه...

وقائع ثلاثة حاسمة فى سيرة ماركوس:

يستوقفنى فى تاريخ حياة ماركوس ثلاثة وقائع لفتت نظرى بصفة خاصة واعتبرتها علامات دامغة على شخصية هذا الرجل ومسيرته السياسية . أول هذه الوقائع أنه دخل باب السياسة باغتيال خصم أبيه فى إنتخابات برلمانية ، وكان لايزال متخرجا حديثا من الجامعة ، وفى أول العشرينات من عمره وقد تطرّقنا إلى هذه الواقعة فيما سلف .

الواقعة الثانية هى التى تآمر فيها على إغتيال خصمه الشخصى وزعيم المعارضة الواعد " بنينو أكينو " الذى حزن عليه الشعب الفلبينى واعتبره ثالث أخلد الشهداء الذين خضبوا بدمائهم أرض الفلبين .. كان أولهم " هوسى ريسال " وثانيهم " أندري بونافاشيو " قاد الاول وحْدهُ ثورة فكرية وأدبية ضد الإستعمار الأسبانى فحكم عليه بالإعدام ، أما الثانى فقد قاد أول نضال مسلح ضد الاستعمار فى أسيا كلها ..

أما الواقعة الثالثة فتكشف عن طراز من القيادات السياسية بلغت من الجشع واللامبالاة بأوجاع الشعب وتعاسته مبلغا يصعب وصفه بالكلمات . ففى الوقت الذى إنحط فيه النظام إلى الدرك الأسفل من الفساد ، وامتلأت قلوب الناس حتى الحناجر بالغيظ والقنوط ، كان ماركوس يخطط مع مجموعة قليلة من بطانته وبعض المغامرين من رجال المخابرات الأجانب للبحث عن أسرار كنز هائل من الذهب والمجوهرات التاريخية النادرة كان بعض جنرالات الجيش اليابانى قد أخفوه فى مخابىء محصّنة بالديناميت فى أنفاق تحت الأرض.. حفرها أسرى الحرب ثم دُفنوا مع الكنز ليدفن سر الكنز معهم...

كان الجيش اليابانى قد اكتسح دول شرق وجنوب شرق آسيا ، ونهب جنرالاته كل خزائن الملوك وقصور الأغنياء والبنوك والمتاحف وجمعوا ثروة ضخمة حملوها معهم عند إحتلالهم للفلبين.. وخبأوها على أمل أن يستخرجوا كنزهم ، بعد أن تستقر لهم الأمور فى المنطقة ، ولكن حرب التحرير تفجّرت، وعاد الجيش الأمريكى المطرود ليحقق نصرا على القوات اليابانية صنعه مليون قتيل فلبينى... والمهم أن الجنرالات اليابانيين أسرعوا بالخروج من الفلبين، ولم تتح لهم فرصة لإستخراج الكنز .. وكان ماركوس يعلم بأمر هذا الكنز فاستأجر رجال مخابرات سابقين، ليساعدوه فى البحث عن خريطة الكنز وتلك قصة طويلة ومثيرة سطّرها أحد الباحثين إسمه " ستيرلنج سيجريف " فى كتاب له بعنوان : " أسرة ماركوس الحاكمة "

من بين ما ذكره: أن ماركوس بعد أن حصل على الكنز أمر بصهر مافيه من حُليّ وتحف ، وجعلها سبائك ذهبية قُدَّر ثمنها فى ذلك الوقت بملغ ٤٢ بليون دولار (صهرها ليخفى معالمها ولا يطالب بها أصحابها) أضافها ماركوس إلى ثروته المهرّبة فى بنوك خارجية تحت أرقام سرية ، لم يكن يعلمها أحد إلا هو .. وقد حاولت الحكومات الفلبينية المتعاقبة البحث عن ثروة ماركوس المهربة ، وإعادتها إلى الفلبين دون جدوى ، ويبدو أن لعنة الكنز والمال الحرام صحبته حتى الموت فلم تنفعه الثروة ، وما نفعت ورثته من بعده ، ولم تسمح المخابرات الأمريكية لإميلدا ماركوس زوجته إلا بخمسة عشر مليونا من الدولارات لتعيش

عليها مع بقية الأُسرة ، وقد كانت أيام عزها تنفق أضعاف هذا المبلغ فى حفلة واحدة من حفلاتها العديدة على مدار العام ..!

كورازون أكينو

عرفنا فيما سبق أن ماركوس قد اضطر – أمام الإصرار الشعبي – إلى الرحيل قاصدًا الولايات المتحدة تصحبه زوجته وحاشيته ، وهتافات الجماهير الساخطة تدوي في رأسه ولعنات شعبه تودعه الوداع الأخير ، حيث مات في منفاه ملعونًا مكروهًا مَفضوحًا ، فلم تُغْنِ عنه المليارات التي سرقها ، ولا نَفَعته الدِّماء التي سفكها ، ولا أطالت في عمره يومًا واحدًا

كل الإجراءات القمعية التي اتخذها ضد مُعارضيه .

خلفته «كورازون أكينو» في رئاسة الفلبين فوعدت بإلغاء قانون الطوارئ وإطلاق الحريات وتدعيم الديمقراطية وقد بَرّت بوعودها .
وفي فبراير ١٩٨٧ ، أجرت استفتاءً عامًا على تغيير الدستور الذي عبث به ماركوس ، وكانت قبل ذلك قد أصدرت بيانًا في أغسطس سنة ١٩٨٦ توضح فيه سياسة حكومتها في قضية مسلمي الفلبين .

في هذا البيان أشادت أكينو بالثورة الشعبية التي أطاحت بالنظام الدكتاتوريّ الفاسد ، وأكدت على أهمية الدور الذي قام به المسلمون في النضال الوطنيّ ضد هذا النظام حيث قالت : « لقد واصل إخواننا المسلمون حَمْل شعلة المقاومة حية طوال الأيام المظلمة التي خيّمت على البلاد بسبب قوانين الطوارئ ، ولأنهم ساهموا في النضال الوطني باعتبارهم مواطنين في هذه الجمهورية ، فإنهم يستحقون أن يحصلوا على نصيبهم العادل من ثمار هذه الثورة » .

ويبدو من بيانها أنها تلخص مطامح المسلمين في تحقيق العدالة والتنمية وإعادة النظر في ذلك الإهمال والمعاناة التي طال أمدها .
وفي تشخيصها لمشكلة المسلمين تذكر أن [الهجرة] من أهم أسبابها وتعني هجرة المستوطنين المسيحيين إلى الجنوب ، كما تذكر المنافسة كسبب آخر ، وهو في الحقيقة تعبير مخفف للتميز العنصري والسطو على أرض المسلمين . وتتحدث عن عدم التوازن الاقتصاديّ والاجتماعيّ ، وهذا تعبير مخفف آخر عن تحوّل الأغلبية المسلمة [في الجنوب]إلى طبقة محرومة مقموعة والأقلية المسيحية المُهَجّرة إلى طبقة محظوظة محتكرة للثروة ؛ فهذه ليست منافسة وإنما عملية اغتصاب .

وتَنْسُبُ الدعوة إلى الانفصال إلى احتكاك المسلمين مؤخرًا بالعالم الإسلاميّ ، وهي في هذا متأثرة بالأفكار الخاطئة الشائعة في مجتمع المثقفين المسيحيين الذين لم يقرأوا تاريخ المسلمين في الفلبين قراءة صحيحة .

والحقيقة ـ كما عرفناها ـ أن الرغبة في الاستقلال قديمة عند المسلمين قِدم حُروب المورو منذ أربعمائة سنة . ولكن « كورازون أكينو » كانت محقة في إشارتها إلى أن الأوضاع في المناطق المسلمة زادت سوءا على سوء تحت قوانين الطوارئ .

كما كانت مُحِقّة أيضًا في إشارتها للتقارير الموثقة عن مأساة المسلمين في الجنوب ، وعن عشرات الألوف من القتلى والمشردين من ديارهم واللاجئين الذين بلغ عددهم خارج الفلبين ثلاثمائة ألف إنسان ، وعن تدمير القوات المسلحة للمحاصيل الزراعية والمزارع ، ووصول النشاط الزراعيّ والاقتصاديّ في المجتمعات المسلمة إلى حالة من الشلل العام .

وتؤكد « كورازون أكينو » في بيانها أن المقاومة المسلحة للمسلمين ضد نظام ماركوس

اضطرته لتوجيه أموال باهظة للإنفاق على عمليات القوات المسلحة أملًا في احتواء هذه المقاومة ، وأن هذه النفقات الباهظة كانت سببًا في الإنهاك التام لاقتصاد الفلبين ، وأن المقاومة المستميتة للمسلمين هي التي عجَّلت بسقوط ماركوس .

ومع هذا الخطاب الإيجابيّ في تشخيص القضية وإبراز حقيقة وأهمية الدور النضاليّ الذي قام به المسلمون وضعت « كورازون أكينو » في بيانها عددًا من الخطوات العملية التي تزمع حكومتها القيام بها لإنهاء الصراع ، من أهم هذه الخطوات :

١ – استعداد الحكومة للحوار مع كل مجموعات المعارضة الإسلامية بما فيها جبهة تحرير مورو الوطنية .

٢ – الإشارة إلى اتفاقية طرابلس في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٦ ، وكذلك إلى مذكرة التفاهم بين الجبهة وبين زوجها الراحل « بنينو أكينو» في ١٢ مايو سنة ١٩٨١ بجدة ، باعتبار هاتين الوثيقتين مرجعًا للمفاوضات .

٣ – التأكيد على مطلب الحكم الذاتيّ .

٤ – إعادة هيكلة المؤسسات الاقتصادية في الجنوب بحيث تتوجه بنشاطها إلى مصالح المسلمين، وإعادة تفعيل نشاط بنك الأمانة كأحد المؤشرات على طريق الإصلاح الاقتصاديّ في الجنوب.

ولكن المناخ السياسيّ الذي كان سائدًا لم يمكّن «أكينو» من وضع سياستها موضع التنفيذ، فقد وَاجَهت معضلات اقتصادية منذ البداية احتارت في حلّها ، من ذلك الأموال التي سرقها ماركوس ووضعها في حسابات سِرِّية في بنوك أجنبية ومات مع أسراره سنة ١٩٨٩ ، وأنكرت زوجته – صادقة أو كاذبة – معرفتها بشيء عن مصير هذه الأموال .

كما واجهت أكينو اضطرابات في شوارع مانيلا كانت تقف وراءها « إميلدا ماركوس بالتمويل والتحريض ، وشاهدنا من ذلك مظاهرات نظمتها نساء يعملن في صالونات الحلاقة وفي بيوت الدعارة .
ولَقِيت أكينو معارضات شديدة من قيادة الجيش عندما أعلنت عن رغبتها في التفاوض مع الشيوعيين ، وجرت محاولات انقلابية ضدها داخل الجيش .

وهكذا أمضت كورازون أكينو سنواتها السِّتة في الحكم دون أن تتمكن من أن تخطو خطوة واحدة في اتجاه التسوية السلمية التي وعدت بها في قضية المسلمين .

وفي سنة ١٩٩٢ أجريت انتخابات الرئاسة فسقطت كورازون أكينو، ونجح فيديل راموس وزير دفاعها العجوز .

فيديل راموس

كانت لدى فيديل راموس أغلبية كبيرة في البرلمان تُسَانده ، وقد استقرت أوضاع الجيش لصالحه ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ذات النفوذ السياسيّ الكبير تُؤَيِّده .
دأب راموس خلال النصف الثاني من فترة حكمه على التصريح بأنه يريد الإصلاح ، وأنه لن يرشح نفسه لفترة ثانية ولم يكن يقصد المناورة كما يفعل السياسيون المحترفون عادة ، وإنما كان يريد أن يحشد الراغبين في الإصلاح الجدي من ورائه ، وفي نفس الوقت يهيئ الشعب لتغيير جديد في الرئاسة وقد أصبح هو شيخًا يلتمس الراحة .

بقي ١٨ شهرًا على نهاية حكمه ، وهو يشعر بالرضا لإنجازاته في إعادة الحياة الديمقراطية إلى مجراها الطبيعيّ في البلاد ، وفي إحداث تطور كبير في مجال الإصلاح الاقتصاديّ ، وفي خَلْق إجماع في الرأي العام حول عدد من القضايا الوطنية الهامة ، من بينها قضية المسلمين الفلبينيين ، وإن بقيت مشكلاتها كلها لم تحل بعد ، فالمحادثات مع « نور مسواري » كانت حتى شهر أغسطس ١٩٩٧ م لا تزال هشة ، وبقي ملايين المسلمين في انتظار تحقيق العدالة ومازال المجتمع الفلبينيّ بُرمَّته يُعاني من فساد ضارب في كل مكان ، ولا تزال البيروقراطية تعطل مصالح الجماهير ، والنظام القضائيّ في حاجة إلى إصلاح جذريّ .

ولم يكن من المتوقع أن ينهض رجل واحد في فترة قصيرة بإصلاح دولة ومجتمع أصابهما الفساد تحت نظام استبداديّ استمر ينفث سمومه واحدًا وعشرين عامًا ، وقد اختار الطاغية بطانته ورجال حكمه على شاكلته من أحط فئات المجتمع وأكثرهم انتهازية وفسادًا .

ويكفي راموس ما أحدثه من تَقَدُّم ملموس في اقتصاد الفلبين ، حيث بلغ النموّ السنويّ في عهده ٧ % وارتفعت معدلات التصدير ، وتحقق التوازن لأول مرة في ميزان المدفوعات ، ونجح برنامج التصدير. وإن كان أكثر هذا النجاح يرجع – فيما يرى المحللون – إلى شركات صناعة الإلكترونيات التي يمتلكها مستثمرون أجانب ، وعلى العموم أصبحت الفلبين في عهده مُؤَهَّلة للحاق بالنمور الآسيوية المجاورة . ولكنها لم تكن لتستطيع هذا وهي لا تزال تعاني من وجود جبهة صراع مسلح مفتوحة في الجنوب والنزيف الاقتصاديّ والعسكريّ مستمر هناك .

وجد راموس أن التفاوض مع «نورمسواري» قد لا يأتي بحلٍّ سريعٍ لصلابته ، فاتجه إلى الطريق الأسهل للوصول إلى تسوية سريعة مع « هاشم سلامات » زعيم جبهة تحرير مورو الإسلامية فهي الأقل تَشدّدًا ، ورأى أن تسوية جزئية سريعة أفضل من لا تسوية ، ومن ثم تمّ التوصل إلى اتفاقية لوقف إطلاق النار مع الجبهة في ١٤ نوفمبر ١٩٩٧ ، على أمل أن تنتهي المفاوضات بتوقيع اتفاق للتسوية النهائية قبل انتهاء فترة الرئيس فيديل راموس في يونية ١٩٩٨ .. ولكن هذا لم يتحقق.

جوزيف استرادا:

كان نجمًا سينمائيًا مشهورًا في الفلبين ، لحق بالسياسة عندما اكتهل وأصبح غير صالح لأدوار الفتى الأول كما فعل «رونالد ريجان» من قبل في الولايات المتحدة . كان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية في عهد راموس، ولم يكن راموس ليرشحه للرئاسة ، فقد كان له أولويات أفضل منه ، ولكن "جوزيف استرادا" كان يستند في ترشيحه إلى ديناصورات الرأسمالية الفلبينية المتوحشة ، فنجح في الانتخابات .

وعاد القلق الاقتصاديّ يطوق حكومته، وكان قد وعد الشعب بالتخفيف من أعبائه المعيشية التي تثقل كاهله ، ولكن بلغ العجز في الميزان التجاريّ خلال الشهور الستة الأولى من إدارته ٢٤ مليار بيسو (٧ر٥ مليار دولار أمريكيّ) ، وتوقع خبراء الاقتصاد آنذاك أن يتضاعف هذا العجز مع نهاية عام ١٩٩٨ . كما بلغ الدَّين الخارجيّ ٤٥ مليار دولار ، وبلغ الدين الداخليّ ٥٥ مليار بيسو .

مثل مصر- تشهد الفلبين زيادة مطّردة فى السكان ؛ فقد بلغ تعدادهم فى أول عهد "جوزيف استرادا" ٧٥ مليون نسمة- تفاقمت بينهم أزمة البطالة وانتشرت المخدرات ومافيا الأموال ، وأَحْدَث كل هذا صُداعًا مستمرًا لحكومته ، ولكنه كان -لضعفه- عاجزًا عن مواجهة التحديات ، فلم يكن يملك سوى أن يطلب من الشعب أن يستعد لمزيد من التضحيات ورَبط الأحزمة على البطون ، وبدلًا من الاتجاه إلى مشروعات تنمية حقيقية ذهب يتكلَّف الأعذار ويلقي باللوم على ميراث «ماركوس» الثقيل والأموال التي نهبها ولا تستطيع الحكومة استردادها .

ولكنه لم يجرؤ أن يعترف بالحقيقة وهي أن مليارات أخرى مثل المليارات التي سرقها ماركوس تضيع على الدولة بسبب تهرّب الرأسماليين الكبار من دفع الضرائب المستحقة عليهم ، لم يجرؤ جوزيف استرادا على ذكر الحقيقة ؛ لأنه كان ضعيفًا أمام غول الرأسمالية الفلبينية ، فهذا هو الملياردير «لوشيوتان» المنحدر من أُصول صينية هو الذي أنفق ببذخ على حملة « إسترادا » الانتخابية وجعله يتربع على مقعد الرئاسة ، إنه يمتلك شركة طيران الفلبين وبنك "ألايِدْ" وشركة لصناعة الخمور وشركة لصناعة الطباق وأموال لا حصر لها ، ومع ذلك كان متهربًا من دفع ٦٢٢ مليون دولار أمريكيّ ضرائب مستحقة عليه ، فلما كشفت الصحف عن هذه الحقيقة كان رد الرئيس « إسترادا » ناعمًا فلم يتخذ أي إجراء ضد صديقة « لوشيوتان » ولم يُوَجِّه إليه اتهامات صريحة ، بل حاول أن يلفت النظر إلى المليارات التي سرقها سلفه الرئيس ماركوس ، وأن الحكومة لن تكف عن سعيها في استرداد هذه الأموال .

هذه الشبهة التي أكدها استرادا بموقفه جعلت الصحافة الفلبينية تحفر وراء علاقات أخرى مشبوهة ، وقد تبين لها أنه لم يتخلص من عصبة السوء التي كانت تحيط به أيام أن كان نجمًا سينمائيًا ، وأنه يتلقى ملايين الدولارات على شكل إتاوات من أندية القمار الكبرى التي

تعجُّ بها الحياة في الفلبين ، وتخفي وراء أسمائها الرنانة عمليات أخرى كثيرة يحرِّمها القانون .

وبدأت قوى المعارضة السياسية تُطَالب بتنحية « جوزيف استرادا » عن السلطة ومحاكمته وكشف حساباته في البنوك ، في ذلك الوقت فجرَّت وكالات الأنباء خبر اختطاف رهائن من السياح في الجنوب الفلبينيّ ، بواسطة عصابة مسلحة يرأسها رجل يسمى سياف أو أبو سياف ، ويزعم أنه ينتسب إلى جبهة تحرير مورو الإسلامية ، ورغم أن الجبهة أعلنت براءتها من هذا العمل ، إلا أننا مع بقية العالم شُغلنا خلال صيف سنة ٢٠٠٠ م بمشهد يوميّ مُتَكَرِّر لأشخاص من الأجانب المختطفين مع فرض إتاوات مالية لعتقهم .. ولا عجب فإن القيادات السياسية الفاسدة المفلسة ، التي لا تملك مشروعًا جادًّا للتطوير والتنمية ، ولا تحشد حولها قوى الشعب الراغبة في العمل والإصلاح- تؤدي عادة إلى مزيد من الفوضى ، والعبث ، والدوران في الحلقات المفرغة وعدم استقرار.
وهكذا تَبْقى قضية المسلمين مُعَلَّقة تنتظر من يُحَقِّق لها العدالة المفقودة والسَّلام المنقوص

الرئيس بنينو أكينو الثالث
واتفاقية بنجسامورو

بعد صراع دمويّ استمر سنوات طويلة بين الحكومات الفلبينية المتعاقبة وبين القوى والجماعات الإسلامية وعلى رأسها جبهة مورو الإسلامية ، أدركت الحكومة الفلبينية أن الحلّ العسكري لن يوصّل إلى نتيجة إيجابية ، ولن ينهى الصراع الذى أنهك الطرفين واستنزف مواردهم ، في غير طائل ، رأت الحكومة الفلبينية أن توسيع نطاق الحكم الذاتي للمسلمين وتوسيع صلاحياته هو الحل الأمثل لقضية المسلمين في الجنوب الفلبيني ، خصوصًا بعد أن قبل المسلمون بالتنازل عن مطلبهم التاريخي بالانفصال التام عن الفلبين ، والاكتفاء بحكومة برلمانية منتخبة أقرب للنظام الفدرالي باسم: حكومة شعب مورو أو كما تم الاتفاق على إسمها "منطقة بنجسامورو" بمقتضى اتفاق سلام شامل توصل الطرفان إليه في ١٥ أكتوبر سنة ٢٠١٢م في عهد حكومة بِنينو أكينو الإبن و أطلق عليه "اتفاقية سلام بنجسامورو الشاملة " ..

الجدير بالذكر أن جولات تفاوض مطوّلة جرت بين السطات الفلبينية في مانيلا وبين جبهة تحرير مورو الوطنية التي تأسست سنة ١٩٦٩ بقيادة "نور مسواري" لمواجهة المذابح التي أوقعتها المليشيات المسيحية المهاجرة من الشمال للاسيطان في أراضى المسلمين وطردهم منها بقوة السلاح ..

وقد استمرت الحرب وتزامنت مع جولات تفاوض بدأت عام ١٩٧٥، وانتهت إلى اتفاقية سلام -وُقّعت بين الجبهة الوطنية ومانيلا عام ١٩٩٦- أضفت الشرعية على "منطقة الحكم الذاتي في ميندناو المسلمة" (وكان الحكم الذاتي قائمًا بحكم الأمر الواقع منذ سنة ١٩٩٠م برئاسة نور مِسْواري.

لكن عمليات المقاومة المسلحة لم تنقطع في مناطق أخرى بالجنوب الفلبيني ؛ فقد انشقت جبهته بعد اتجاهه إلى المفاوضات والتنازل عن مطلب الاستقلال إلى الحكم الذاتي .. بعد إعلانه التفاوض مع حكومة مانيلا.. حيث تخلّى عنه نائبه سلامات هاشم- فى ديسمبر ١٩٧٧ - ليواصل المقاومة المسلحة التي أعلن عن تأسيسها رسميًّا سنة ١٩٨٤ باسم جبهة تحرير مورو "الإسلامية" وتعاظم شأنها ؛ فصارت كبرى الحركات الإسلامية المسلحة في جنوب الفلبين،

تأثر مؤسسو الجبهة الإسلامية وأشهرهم رئيسها الأول سلامات هاشم [خريج الجامعة الأزهرية] منذ الستينات بكتابات الحركة الإسلامية في مصر، وبفكر االمجاهدين وخبراتهم في فلسطين وأفغانستان ، وبحركات أخرى للمقاومة الإسلامية في باكستان وماليزيا .. وقد بلغت الجبهة شأوًا بعيدًا في عنايتها بحشد الأنصار وتربيتهم إسلاميّا وتدريبهم على الخدمة العامة وعلى القتال المسلح في الوقت نفسه. حتى أصبح لها ٤٦ معسكرًا، ووصل عدد أعضائها -بحسب مصادرها- إلى ١٢٠ ألف متدرب- ٦٠% منهم مسلحون إضافة إلى أكثر من مائتي ألف مؤيد آخر.

لقد فرض هذا الواقع القوي نوعًا من الحكم الذاتي للمسلمين في الجنوب ، لم يعجب الرئيس الفلبيني الأسبق جوزيف استرادا [هذا الدكتاتور الفاسد ذو المزاج الدموي]- لذلك أعلن في مارس سنة ٢٠٠٠م حربًا شاملة على الجبهة الإسلامية، وعلى المسلمين العزل في الجنوب لم يسبق لها مثيل منذ سنوات طويلة؛ فقد أطلق قواته المسلحة ، ومليشياته المسيحية على المسلمين في الجزر الجنوبية في حملة إبادة جماعية ؛ حتى لا تكاد تجد منزلا في الأقاليم المسلمة دون أن يكون أهله قد فقدوا أحد أفراد عائلتهم في هذه الحرب الشرسة غير المتكافئة .

وهكذا أضافت اعتداءات "جوزيف استرادا" مزيدا من المعاناة والآلام، وتدهور الأوضاع الأمنية والمعيشية والاقتصادية في صفوف المسلمين.. ولكن سرعان ما استعادت جبهة مورو الإسلامية قدراتها القتالية بفضل الكاريزما الشخصية لقائدها هاشم سلامات، وبفضل الإمدادات التي تلقّاها من جيرانه المسلمين في جنوب شرق آسيا.. ومع ذلك فقد بدأ فكر جديد نحو الحلول السلمية يغزو الطرفين:

السلطة الفلبينية بعد أن تخلّصت من رئيسها الفاسد وقدمته للمحاكمة ، وجبهة المقاومة الإسلامية التي اعتمدت الجهاد المسلّح -عقودا طويلة من الزمن- سبيلا لتحقيق حرية المسلمين واستقلالهم ؛ فقد بدأ الخطاب السياسي لجبهة مورو الإسلامية يتحول تدريجيّا نحو الحلول السياسية ، حيث جرت بينها وبين الحكومة الفلبينية برئاسة "بنينو أكينو الابن" محادثات في هذا المجال ، وتعزّز هذا الاتجاه بعد وفاة مؤسسها هاشم سلامات سنة ٢٠٠٣ وانتقال قيادتها إلى " الحاج مراد إبراهيم" الذى اتضح ميله نحو الخطاب السياسي، وذلك إثر مراجعات ومشاورات داخلية انتهت إلى عدم الاكتفاء بخيار الاستقلال والحكم الذاتي، وإنما فتح الباب أمام خيارات أخرى تقترب من النظام الفيدرالي.

كانت ماليزيا أكبر الداعمين للمقاومة الإسلامية في عهد هاشم سلامات ، كما كانت ولا تزال هي أكبر الداعمين لتحقيق السلام العادل للمسلمين في الفلبين ؛ لا بحكم انتمائها للإسلام فقط- فماليزيا تُعَدُّ من أُقرب الدول إلى القضية الموروية في كل تطوُّراتها ، و هي الأقرب والأكثر فهما لقيادات منظمتيْ مورو الوطنية والإسلامية.

ربما نظرًا للقرب الجغرافي والروابط الثقافية والدينية بين الشعبين الملايوي والموروي، وقد كان العسكريون الماليزيون على رأس فريق المراقبين الدوليين الذي بدأ عمله منذ عشر سنوات وقام بدور محوري في تأمين سريان الهدنة بين الجيش الفلبيني والجبهة الإسلامية طوال فترة المفاوضات .. حتى تم الوصول إلى الاتفاقية الأخيرة "اتفاقية بنجسامورو للسلام الشامل"..

هذه الاتفاقية معنية بإقامة نظام سياسي خاص بالمسلمين يبدأ تطبيقه اعتبارًا من سنة ٢٠١٦م، وتم إقرار حدوده الجغرافية في محافظات جنوب الفلبين .. بسلطات وصلاحيا أوسع من الحكم الذاتي السابق ؛ حيث تسمحّ صياغته على أنه سيكون حكمًا تتشكل فيه

وزارة وبرلمان منتخبان .. و له من الصلاحيات ما يجعله شبه مستقل في كثير من الشؤون مع بقائه في إطار سيادة الدولة الفلبينية.

ومن العناصر المهمة في الاتفاقية ما سُمي بتسوية الأوضاع الإنسانية والأمنية، وتشمل تجميد أو تجميع وتخزين سلاح الجبهة الإسلامية، في مخازن تشرف عليها فرق مشتركة من الخبراء والمراقبين، تمهيدًا لنقل مقاتلي الجبهة إلى حياة مدنية ضمن برنامج تنموي، يتم فيه إدماج المقاتلين السابقين في وظائف مختلفة، بإشراف هيئة مستقلة ، أعضاؤها خبراء دوليون ، وممثلون عن الطرفين لوضع سجلات لمقاتلي الجبهة الإسلامية، التي ستتحول تدريجيًا إلى حزب سياسي ذي نشاط اجتماعي واقتصادي.

وحسب تطورات الجوانب الأخرى من سير عملية اتفاقية السلام، ستجري إعادة انتشار الجيش الفلبيني، ليتم توزيعه على مناطق بنجسامورو وفق خريطة جديدة كمنطقة غير عسكرية، وتنفيذ خطة لتحويل المعسكرات الرئيسة للجبهة إلى مناطق منزوعة السلاح، كما يُفترض أن يعمل على تحقيق مصالحة وطنية وعفو شامل عن أحداث وقضايا ذات علاقة بالصراع العسكري.

ولأن الاتفاقية تنطلق من فكرة رفض المسلمين للأوضاع القائمة في ظل الحكم الذاتي الحالي وتأكيدًا على الحاجة لإيجاد نظام سياسي وإداري وقانوني واقتصادي جديد لشعب مورو، كان الاتفاق على إحداث التغيير على مراحل تستمر لنحو عامين:

ينجز فيها المسلمون قانونًا أساسيًا لحكومة بنجسامورو ، بحسبانه الخطوة الدستورية الأهم لإقامة منطقة الحكم الإسلامي .. وقد انتهت هيئة بنسجامورو الانتقالية من إعداد مشروع هذا القانون الذى سيكون بمثابة الدستور لحكم هذه المنطقة، وتم تقديمه إلى الرئيس الفلبيني بنينو أكينو الذي قدمه بدوره إلى الكونجرس الفلبيني لإقراره.

دوافع فلبينية:

تبنَّى الرئيس الفلبيني بِنينو أكينو خطاب السلام منذ تولّى رئاسة البلاد في ٣٠ يونيو ٢٠١٠م ، وهو يعلم أن على بلاده أن تختار بين أمرين: الإبقاء على سياسة احتواء المسلمين التقليدية ؛ من خلال حكم ذاتي محدود الصلاحيات؛ وهو ما يعني غموض المستقبل واحتمال انفجار الأوضاع من حين لآخر، أو إقامة سلام حقيقي مع مسلمي مورو من أجل تحقيق استقرار دائم ومستقبل أفضل للفلبين، لاسيما أن شركات فلبينية وعالمية كثيرة تتطلع للاستثمار في مِنْدَناو الغنية بالثروات الطبيعية والمعدنية والزراعية.. وقد ساعد على تقوية هذا الاتجاه تغيّرات أساسية في موقف جبهة تحرير مورو الإسلامية: التي توقّفت عن فع

شعار الجهاد من أجل الاستقلال وتأسيس دولة إسلامية مستقة إلى المطالبة بتحقيق الحقوق الأساسية لشعب مورو في ظل السيادة الفلبينية.

مؤثرات خارجية:

من منطلق مصالح جيو-سياسية واقتصادية عديدة يُلاحَظ أن أطرافًا إقليمية ودولية كثيرة دعمت مفاوضات السلام ولم يقتصر الأمر على الوسيط الماليزي؛ فقد كانت دول كإندونيسيا وبروناي واليابان حاضرة، وكذا الاتحاد الأوروبي وكندا وأستراليا وبريطانيا، إضافة إلى عدة دول عربية وإسلامية كتركيا والسعودية وذلك في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي إلى جانب منظمات إنسانية غربية وإسلامية.

سلام مندناو وتحديات المستقبل:

إن تحقيق السلام في ميندناو وتأسيس حكومة لشعب مورو لن يكون سهل المنال، فتوقيع الاتفاقية مجرد خطوة أولى في طريق طويل محفوف بالتحديات، التي من أبرزها:

تساؤلات حول الرئيس المقبل للفلبين: فقدعانت القضية الموروية من تقلبات سياسية مع تغيير الرؤساء الفلبينيين على مدى عقود، وهذا ما يجعل تحقق المراحل الأخيرة من اتفاقية السلام مرهونًا بتوجُّهات الرئيس القادم ، حيث تشير الاتفاقية إلى التزام الطرفين بولادة حكومة بنجسامورو الجديدة يوم ٣٠ يونيو من عام ٢٠١٦م ، وهو اليوم الذي تنتهي فيه الفترة الرئاسية للرئيس الفلبيني بنينو أكينو؛ ما يجعل الانتخابات الرئاسية في ذلك العام ذات أهمية خاصة بالنسبة لشعب مورو.

العلاقة بين حكومة مانيلا وحكومة بنجسامورو:

تصف اتفاقية السلام العلاقة بين الحكومتين بأنها علاقة غير متماثلة ؛ فهي تشبه العلاقة بين الحكومة الاتحادية وولاياتها في النظام الفيدرالي لكنها لا تحدّدها بذلك التوصيف، لأن الفلبين ليست اتحادًا فيدراليًّا ؛ فالعلاقة بينهما غير متكافئة لأن الحكومة المركزية أعلى منزلة من الحكومة الموروية ؛ ما يعني أن العلاقة بين الحكومتين قد تكون مثار خلاف من حين لآخر بعد أن يتم تشكيل النظام الموروي الجديد تبعًا لمستوى التواصل بين الساسة في الحكومتين.

فهناك تداخل فى السلطات والصلاحيات ، بمعنى وجود صلاحيات مشتركة بين حكومتي مانيلا وبنجسامورو في مجالات كثيرة كما هو الحال في إدارة الثروات والتجارة الدولية وتسجيل الأراضي وإدارة الموانئ، والجوانب الأمنية والمصرفية، وقضايا حقوق الإنسان، وهي محاور كثيرة قد تكون محل خلاف قانوني وتشريعي وإداري.

ولكن سيبقى للكونجرس الفلبيني اليد الطولى في التأثير على عملية التحول إلى الاستقرار السياسي في مِندناو، وأول خطوة في ذلك الطريق موافقة الكونجرس على قانون بنجسامورو الأساسي وتعديل مواد في الدستور الفلبّينيّ نفسه لتتوافق وتأسيس حكومة برلمانية لبنجسامورو في ظل نظام رئاسي.

وتأتى المشكلة من وجود مواد في الاتفاقية قد تلقى معارضة من قِبَلِ أعضاء في الكونجرس كالمادة التي تتحدث عن قوة شرطية خاصة ببنجسامورو، أو تقنين منح المسلمين حكمًا ذا صلاحيات واسعة، وربما تشهد مسيرة السلام عثرات كما حدث في حالات سابقة ؛ إذ يظل القضاء الفلبيني قادرًا على إيقاف أية خطوة من خطوات تنفيذ اتفاقية السلام كما حصل في عام ٢٠٠٨م عندما أوقفت المحكمة العليا توقيع اتفاقية بين الحكومة والجبهة بشأن ملكية المورويين للأراضي الموروثة .

كذلك سيكون دور الجيش محوريا في تعزيزالسلام، ولاسيما أن احتمال وقوع تجاوزات عسكرية على الأرض لاتفاقية السلام وارد من حين لآخر.

هذا ولم تقرر الاتفاقية بصورة نهائية الحدود الجغرافية لحكومة بنجسامورو المرتقبة، فالقرار يعتمد على نتيجة استفتاء سيجرى في الأقاليم الجنوبية، وعلى قرار من سيقبل من شعب مورو بأن تنضم منطقته إلى سيادة بنجسامورو. لهذا قد تصبح الحدود الجديدة أوسع من حدود الحكم الذاتي الحالي، أو تبقى على حالها، لاسيما في ظل إمكانية معارضة بعض المناطق ذات الأغلبية المسيحية.

التحدي الاقتصادي:

تتيح الاتفاقية المشار إليها إلى أنه من حق حكومة بنجسامورو الحصول على منح وقروض واستثمارات خارجية ؛ مما يفسح المجال أمام التعامل المباشر لهذه الحكومة مع الدول العربية والإسلامية والآسيوية والأوروبية .. كما تشترط الاتفاقية -في مقابل نزع سلاح الجبهة- أن تبدأ الحكومة الفلبينية في برنامج تدريب وتأهيل اقتصادي للمقاتلين ضمن خطة تنموية لبنجسامورو، مدعّمة بصندوق تنمية خاص، مع تعهد الحكومة الفلبينية والبنك الدولي وأطراف أخرى بضخ مزيد من الأموال لتحقيق السلام..

إلا أن مخاوف المورويين تظل قائمة من عراقيل اقتصادية تأتى على الطريق، كما حدث في تجربة الحكم الذاتي السابقة التي لم تغير برامجه التنموية أوضاع فقراء مِنْدَناو.

وتبقى دائما العلاقة بين الحكومة المركزية في مانيلا وبين حكومة بنْجَسامورو في الجنوب الفلبيني موضع تساؤلات رغم تحديد الصلاحيات الأساسية التي تخص الحكومة المركزية نلخصها في تسع صلاحيات هي:

الدفاع والأمن الخارجي، والسياسات الخارجية، وصك العُمْلَة، والسياسة المالية، والجنسية والمواطنة، وإدارات الهجرة والبريد والجمارك وشؤون السوق المشتركة، والحقوق الفكرية.

تحقيق الجزيرة نِتْ

صدر العدد رقم ٣٥ لينار سنة٢٠١٥ من مجلة "الجزيرة نت" متضمّنًا ملفًّا خاصًّا بعنوان "جنوب الفلبين.. نهاية حرب".. وهو يشتمل على دراسة ميدانية لاتفاقية السلام بين الحكومة الفلبينية وجبهة تحرير مورو الإسلامية المعروف باسم "بانجسامورو". وتستحق هذه الدراسة منا النظر والاهتمام لأنها تضمّنت لقاءات كاشفة مع شخصيات هامة ومؤثرة ومع أطراف متعددة، من مختلف الأطياف والاتجاهات.. كما تكشف بوضوح عن حقيقة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لمختلف فئات وطبقات المجتمع الفلبيني المسلم ، وتبرز صور المعاناة والمشكلات المزمنة في نسيج المجتمعات المسلمة ؛ كنتيجة للصراع العسكري الطويل مع الحكومات الفلبينية المتعاقبة لأكثر من نصف قرن استنزفت فيها موارد المسلمين ، وتم الاستيلاء على أراضيهم الزراعية ،

ومحاصرة مجتمعاتهم المدنية ، بطوفان من المهاجرين المسيحيين من جزر الفلبين الشمالية.

يستعرض تقرير المجلة تاريخ الاضطهاد الاستعماري والديني الذي تعرض له المسلمون ، ويتناول محاولات التفاوض التي لم يرفضها المسلمون ، رغم أنهم لم يحصلوا منها على ثمرات مشجعة على الاستمرار في التفاوض ، فقد كانت الحكومة الفلبينية ، بعد كل اتفاقية للسلام أبْرمتها مع المسلمين- هي التي تنقضها بشن حرب جديدة عليهم .

ثم ينتقل التقرير إلى أكبر القوى العسكرية التي يملكها المسلمون متمثِّلة في جبهة تحرير مورو الإسلامية ، فيستعرض هويتها وتاريخها، ويأخذنا في جولة داخل أحد معسكراتها، لنشهد نظامها التربوي والدعوي، فضلا عن واقع التعايش بين المسلمين والمسيحيين المقيمين في المنطقة.. يتناول التقرير واقع التمييز الذي عاشه المسلمون تحت أنظمة متعاقبة، وما سجلته ذاكرة شعب مورو المسلم من مجازر ومآسي على يد الجيش الحكومي والعصابات المسيحية المسلحة.. ويُعرّج التقرير على دور المرأة المسلمة في مواجهة هذا التمييز، وما تقوم به في مجالات التنمية السلمية. كما يشتمل على إشارة إلى حركة جديدة تسمى "باليك إسلام" و التي تعني العودة إلى الإسلام، دين الفلبين القديم.

إلتقت الجزيرة نت مع "مهاجر إقبال" أحد أبرز قياديّى جبهة تحريرمورو الإسلامية ورئيس دائرة التفاوض عنها مع الحكومة، للحديث عن أبرز المراحل التي مرت بها المفاوضات حتى الوصول إلى "الاتفاقية الإطارية الجديدة" .

يقول إقبال "منذ ١٩٩٧م إلى منتصف عام ٢٠٠٠ كانت المفاوضات داخلية بدون وساطة، وكنا نقابل جنرالات الجيش.. كانت المفاوضات تُجرى ويقع قتال بين الجانبين، بسبب الخروقات التي ارتكبتها الحكومة وأثرت على مكاسب عملية السلام..

وبحلول عام ٢٠٠٠ تولى جوزيف استرادا رئاسة الفلبين، وبدل أن يستمر في عملية السلام اختار شن حرب شاملة ضد الجبهة الإسلامية رغم أن الهدنة كانت قائمة رسميًّا بين الجانبين، وبطبيعة الحال فإن الجبهة قامت بالرد المناسب مستخدمة إستراتيجية الكرِّ والفرّ".

ثم تمت الإطاحة بالرئيس جوزيف استرادا بتهم فساد واستغلال النفوذ، وتولت الحكم بعده الرئيسة "أورويو ماكاباجال" عام ٢٠٠١، فدعَت الجبهة الإسلامية للعودة إلى المفاوضات، ولكن رفضت الجبهة لأنها لا ترى جدوى من المفاوضات ، حيث تكرر خرق الهدنة والاتفاقيات ، فاتجهت أرويو إلى ماليزيا طالبة التدخل والوساطة؛ فأرسلت الحكومة الماليزية وفدا إلى الجبهة الإسلامية لإقناعها، فوافقت الجبهة بشرط أن تكون المفاوضات خارج البلاد ، ولهذا جرت المفاوضات بالفعل خارج الفلبين بوساطة ماليزية من سنة ٢٠٠١ إلى سنة ٢٠١٤م.

وفي خلال هذه الفترة تم خرق الهدنة من جانب الحكومة الفلبينية -كالعادة- مرتين كانت الأولى هجوما شاملا في فبراير ٢٠٠٣ ، فاجأ المسلمين أثناء صلاة عيد الأضحى .. وكانت الثانية سنة ٢٠٠٨ م ، عندما فشلت الحكومة الفلبينية في التوقيع النهائيّ على اتفاق "ملكية الأجداد" رغم أن الجانبين وقعا مبدئيا على هذا الاتفاق الذي يقضي بإعادة ملكية الأراضي والبيوت المغتصبة من شعب مورو؛ إلا أن المحكمة الدستورية أصدرت قرارا بإلغاء الاتفاق، وأعلنت أنه مخالف للدستور، مما أشعل الحرب مجددا.

يقول مهاجر إقبال: عندما جاءت رئاسة بينينو أكينو، بدأ مناخ جديد في مسيرة السلام، فقد رأت الجبهة أن الحكومة جادة في المفاوضات حتى توصلنا إلى الاتفاق الإطاري والاتفاق الشامل لبانجسامورو ، وذلك برعاية ماليزية في كوالالمبور، لإنهاء الحروب التي أودت بحياة أكثر من ١٥٠ ألف قتيل، ومئات الآلاف من الجرحى والمعاقين".

غير أن إقبال يؤكد أنه "رغم أن الإيجابيات موجودة، لكننا لا نثق كثيرا بالحكومة، لأن الدستور الأساسي الذي كتبناه لسلطة بانجسامورو ذات الحكم الذاتي لا يزال محل نقاش في مجلس النواب الفلبيني، وهو دستور يرغب به شعب مورو، لكن المحكمة الدستورية العليا في الفلبين قد تقول إنه يخالف دستور البلاد، الأمر الذي جعل الجبهة -رغم الأمل- في حالة من عدم الثقة الكاملة، ولذلك نعمل وفق مبادرة تقضي بعدم وضع الأسلحة قبل الحصول على البديل."

تفاؤل حذر بالاتفاقية:

أعطت اتفاقية "بانجسامورو" أملا جديدا لشعب مورو المسلم وإحلال السلام الغائب عن جزيرة مِنْدَاناو جنوب الفلبين منذ استقلال الفلبين عن الاحتلال الأمريكي عام ١٩٤٦، وإنهاء عقود الحرب التي أودت بحياة أكثر من ١٥٠ ألف مسلم.

ويتسم موقف الجبهة الإسلامية من الاتفاقية بالتفاؤل والحذر في آنواحد ؛ فالجبهة ترى أن هناك الكثير من الإيجابيات في الاتفاقية ، لكنها تتشكك في جدية الحكومة إزاء تنفيذها.

ويرى رئيس الهيئة التشريعية في جبهة تحرير مورو الإسلامية "مهاجر إقبال" - الذي يرأس أيضا المفاوضات عن الجبهة مع الحكومة الفلبينية، والهيئة الانتقالية لحكومة بانجسامورو- أن من أهم ما جاءت به الاتفاقية "هو دستور خاص بشعب مورو" .

قال إقبال للجزيرة نت :

"لا يوجد أفضل من الدستور الأساسي إلا الاستقلال، ونحن نؤمن بأنه إذا تمت تسوية مشكلات الدستور فثمة تقاسم عادل للسلطة والثروات، وهذا هو الحكم الذاتي الحقيقي، وإذا تم تطبيق هذه الاتفاقية ترى الجبهة أن هنالك أملا في إصلاح البلاد وإصلاح أحوال الشعب. فبلادنا غنية بالثروات وأراضينا خصبة، والأهم أن الجبهة منظورها إسلامي، وهذا السبب الأبرز الذي أوصلنا إلى مرحلة النجاح هذه".

وتدارك قائلا "رغم أننا متفائلون ونأمل من مجلس النواب المصادقة على دستور بانجسامورو ، إلا أننا لا نثق بهم، لأنهم قد ينقصون أو يحرفون مواد، وعندئذ لا ندري كيف ستكون ردة فعل الشعب المسلم ، أما إذا أدت مراجعتهم إلى ما هو أفضل ، فهذا ما نريده".

أما "توجان كيكاي" عميد كلية العلاقات الدولية في مدينة كوتاباتو، ورئيس منظمة "ساجاهاترا" للتنمية، التي تشكلت بموجب اتفاقية بانجسامورو، فيرى أن الاتفاقية "ليست نصرا محققا للجبهة الإسلامية، فقد قدمت الجبهة تنازلات، وهذا ما أكسبها احتراما وتأييدا شعبيا ودوليا كبيرين، والحكومة الفلبينية طرحت عدة مبادرات تفاعلت معها الجبهة إيجابيًّا لتطبيق الاتفاقية بشكل محكم يراقبه الوسيط الماليزي مع مجموعة اتصالات تضم عددا من الدول المجاورة ودول الاتحاد الأوروبي".

وأضاف قائلًا: "شعب مورو تنفس الصعداء بالوصول إلى هذه الاتفاقية، لأنها تلغي قيودا وصعوبات كثيرة فرضت عليه، كالتمييز، وحرية العمل والتنقل بين أرجاء البلاد".

"وعلى الحكومة الجديدة أن تكون راشدة في إقناع من يعارضها، لكي يغيروا مواقفهم ويلتفوا حول الجبهة الإسلامية في قيادتها للحكومة ، إلى أن يتمّ إجراء الانتخابات فى سنة ٢٠١٦م" ، في إشارة منه إلى الموقف المتردِّد لجبهة تحرير مورو الوطنية ، ووجود بعض الجماعات االمناوئة كجماعة "أبو سياف".

ويمضى تقرير الجزيرة نت ليطلعنا على نموذج من معسكرات الجبهة الوطنية ، [التي تنتقد الاتفاقية] هومعسكر "إبراهيم" في بلدة داليكان بمحافظة ماجنداناو، حيث تم لقاء "مسليمي سيما" رئيس الجبهة الذى قال: "إن اتفاقية بانجسامورو تخلق مشكلة كبيرة، لأنها تقبل بالحكم في خمس محافظات من أصل ١٥ توصلت الجبهة الوطنية بالاتفاق مع الحكومة إلى حكم ذاتي فيها، وهذا سيؤدي إلى انقسام بين الشعب، وسيضعنا في حرج مع المجتمع الدولي الذي اعترف باتفاق طرابلس، الذي أبرمته الجبهة الوطنية مع الحكومة الفلبينية عام ١٩٧٦، والاتفاق النهائي الذي وقع في عام ١٩٩٦م برعاية منظمة التعاون الإسلامي، الذي لم يطبَّق للأسف".

وتحدث "سيما" عن مشكلة تخُصُّ الدستور، فقال "نحن ضد إجراء استفتاء على دستور خاص ببانجسامورو في خمس محافظات فقط، لأن الحكومة تريد ذلك لتقليص مساحة الحكم الذي توصلنا إليه مسبقا".

وأضاف "نحن لا نرفض اتفاق بانجسامورو بشكل عام، بل نرحب به، ومنظمة التعاون الإسلامي أنشأت منتدى لتقريب وجهات النظر وتوحيد الجهود بين الجبهتين الإسلامية والوطنية، ودمج الاتفاقيات وتفادي الصدام بين الإخوة".

ولكن هناك آراء أخرى تدعم الاتفاقية وتبرز الجوانب الأفضل والأقوى فيها مقارنة باتفاقية الحكم الذاتي التي توصلت إليها الجبهة الوطنية ولم تُنفّذ ؛ حيث يقول الأمين العام لهيئة علماء المسلمين في الفلبين "سعيد ساليندا" إن الحكم الذاتي السابق "كان شكليا دون أي صلاحيات أو سلطات، وكان يمثِّل التفافا على مطالب شعب مورو الأساسية، أما اتفاقية بانجسامورو فتعطي الحكم الذاتي لخمس محافظات كبيرة تشكل نحو ٢٥% من إجمالي مساحة جزيرة مِنْداناو، ويشكل المسلمون فيها أغلبية تزيد عن ٩٠% من إجمالي عدد السكان" وأضاف: "لو أن حكومة بانجسامورو حكمت كل المحافظات الـ١٥ لما استطاعت تمرير دستورها ، في محافظات يشكل المسيحيون فيها أغلبية. والواقع يقول إن حكم خمس محافظات أفضل.. وفى الوقت نفسه لا تعارض الاتفاقية انضمام محافظات ومناطق أخرى لحكومة بانجسامورو فيما بعد".

وفيما يتعلق بفرض الاستقرار وتحقيق التنمية، قال المدير التنفيذي لمؤسسة بانجسامورو للتنمية "محمد يعقوب" سئم الشعب الحرب، فقد دمّرت جميع نواحي الحياة، وأضرَّت بنحو ٧٠% من مناطق شعب مورو، وجعلت نسبة ٧٠% من السكان تحت خط الفقر، فهاجر الملايين منهم بحثا عن الأمن والعمل، وأصبحت أراضينا مناطق إرهابية مخيفة للعالم".

وأوضح: أن ٢٠% من اقتصاد الفلبين "يعتمد على أراضينا ، التي تضمّ مخزونا نفطيا كبيرا يزيد عن مليار برميل، ولدينا الكثير من مناجم الذهب والفحم، هذا بالإضافة إلى موارد تجارة الخشب والزراعة والبحر والأنهر الغنية، ووفق الاتفاقية سيكون لدى حكومة بانجسامورو حق الاستفادة من مواردها، وإبرام اتفاقيات محلية ودولية بشكل مستقل عن الحكومة الفلبينية".

أما"ربيع أثقال" أستاذ التاريخ في جامعة كوتاباتو المتحدث باسم منظمة تحالف السلام فيرى أن ميزة الاتفاقية تكمن في مساحة القبول الواسعة التي تحظى بها لدى شعب الفلبين وشعب مورو، لأنها تحل الصراع بشكل عادل يعترف بهوية الشعب، وتضمن لحكومة بانجسامورو السيادة على أراضيها، وحرية إدارة مواردها، وحرية الممارسات الدينية الإسلامية ، وتطبيق القضاء الشرعي على المسلمين، والتمتع بدستور خاص لم يكن موجودا من قبل".

التمييز العنصري:

أي دارس لتاريخ المسلمين في الفلبين لابد أن يلاحظ اضطهادًا متواصلًا وتمييزًا عنصريًّا مفروضًا عليهم منذ قرون؛ بدأه ومارسه الاحتلال الأسباني لأكثر من ثلاثة قرون، وتبعه في ذلك الاحتلال الأمريكي ، ثم ورثته الحكومات الفلبينية المتعاقبة، فطبّقته بضراوة ضد المسلمين .. فنحن أمام موروث ثقافي راسخ ، دعّمته الكنيستان الكاثوليكية والأنجليكانية .. واستفادت به قوى وفئات سوّغت لنفسها اغتصاب أراضى وممتلكات المسلمين [في الجنوب] بدعم من السلطات الحاكمة.

وقد أسفر هذا التمييز [في المناطق الشمالية حيث يوجد بضعة ملايين أخرى من المسلمين]- عن تدهور أوضاعهم ؛ إذ أصبحوا يشعرون بالغربة في وطنهم: حقوقهم المدنية معدومة أو منقوصة، مع أنهم بحكم الدستور الفلبينيّ مواطنون فلبينيون. ويعبر عن هذه الحقيقة "توجان كيكايْ" رئيس منظمة "ساجاهاترا" [السلام] للتنمية فقال: "كان السفر إلى خارج جزيرة مندناو محفوفا بالخطر، لأنه كان يعرّض الرجل المسلم للقتل بسبب الشكل أو مكان الإقامة ، ويعرِّض النساء للاغتصاب إن كن محجبات".

يقول كيكاي " كان المسلم لا يستطيع الالتحاق بالوظائف الحكومية بسهولة، ومن المستحيل أن يصل إلى أي منصب كبير في الدولة إلا في وزارة "شؤون المسلمين"، لكنها وزارة شكلية ".

ويضيف : "إذا كان المواطن المسلم جنديا فقد كان لا يسمح له بخوض تدريبات قتالية عالية المستوى"، في إشارة إلى أن الحكومة كانت تخشى أن يتحول الجنود المسلمون إلى القتال ضدها في صفوف جبهة تحرير مورو الوطنية أو الإسلامية.

وفيما يتعلّق بالتعليم، يؤكد الرجل أن الحكومات الفلبينية المتعاقبة تتعمّد إقصاء المناهج الدينية الإسلامية عن المدارس والجامعات، وإلزام الطلاب بتعلّم المسيحية الكاثوليكية، مما أدى إلى انتشار الجهل بين المسلمين الذين رفضوا التعليم المصحوب بالتنصير القهريّ.

ويرى كيكاي أنه في ظل غياب تام للإعلام الإسلامي ، شاعت فى معظم وسائل الإعلام أفكار تحريضية ضد الإسلام والمسلمين ؛ إذ تنسب إليهم -إفتراءً- خطر الجرائم والعمليات الإرهابية ، مع أن نسب الجرائم في مناطق المسلمين قليلة مقارنة بغيرها من المناطق الفلبينية.

ووفقًا لتقرير "الجزيرة نت" لاحظ مراسلوها أن الاتفاقية الجديدة قد خفّضت حالتي التوتر و"الحقد"، وانعكس هذا نسبيا على نظرة غير المسلمين إلى الإسلام، حتى ليشعر المسلمون بأنهم يخرجون من عنق زجاجة التمييز، وإن كانت تداعياته وآثاره لا تزال حاضرة حتى يومنا هذا.

في شوارع وأحياء أكبر المدن الفبينية "مانيلا" يمشي المسلمون والمسلمات المحجبات كغيرهم دون مشكلات ، لكنهم لا يزالون منعزلين في أحياء فقيرة خاصة بهم وغائبين عن واجهة العمل في أكبر المحلات التجارية والشركات.

يقول مراسل الجزيرة تحدثنا إلى الطالبة الشابة أمينة عن مشاكل المسلمين في مانيلا، فقالت إن طابعا ذهنيا سيئا لا يزال موجودا عن المسلمين في المجتمع، لكنهم [المسلمين] يعيشون بحرية نسبية أوسع متمتعين بحقهم في اللباس والمأكل الحلال وممارسة تعاليم الدين والاحتفال بالأعياد، ولكن دون أن تُحسب أعيادهم عطلات رسمية كغيرها من أعياد المسيحيين.

ويري كيكاي أن المسلمين الفلبينيين يشعرون اليوم بالمواطنة والحصانة أكثر من ذي قبْل ؛ فلا مشاكل تذكر مع التدين واللباس، وإن كانوا يعانون من ندرة الطعام الحلال في مانيلا وغيرها من المدن التي يشكلون فيها أقلية لا تتجاوز ثلاثة ملايين نسمة، وكذلك يعانون من صد بعض الشركات الخاصة لهم، بسبب اللباس أو ضعف الخبرة".

وختم قائلا إن "الشعور بالمواطنة يكتمل بفرض المساواة في ظروف العيش والتعليم وّالتنمية، ووضع ضوابط تعاقب الإعلام االمضلّل وتحد من انتشاره، وهذا ما يجب العمل على تحقيقه خلال الأعوام المقبلة، حفاظا على المكتسبات وتعزيزًا للتعايش."

مسلمات مورو.. تضحية وتنمية

لا تزال ذاكرة شعب مورو المسلم تعج بمشاهد الموت والقهر، وكانت النساء أبرز ضحايا حرب استمرت عقودا بين القوات الحكومية وجبهتي التحرير الوطنية والإسلامية في جنوب الفلبين.

مشاهد مروعة رآها الناس ، ويتحدثون عنها بألم كما لو أنها قد حدثت بالأمس: كان اغتصاب النساء وقتلهم أبرز وسائل القهر لكسرإرادة المسلمين وإذلالهم، لأنهم رفضوا أن يكونوا جزءًا من دولة الفلبين كما أراد الاستعماران الأسبانيّ والأميركي على التوالي ، ثم رفضوا وقاوموا حملات التنصير والتطهير العرقي والديني التي مورست ضدهم.

أسباب كثيرة دفعت المرأة المسلمة لتكون إلى جانب الرجل في خطوط القتال الأولى، وللعب أدوار كثيرة تخرج بها عن طبيعتها الرقيقة وباتت رئيسية إلى جانب أدوارها في التربية والتعليم وحفظ الأسرة.

انشغال الرجال بالحرب التي قتلت وجرحت مئات الآلاف منهم دفعها لتقوم بأعمال الرجال في الجبهة الداخلية ؛ كمزارعةٍ في الحقول، وصائدة سمك في البحار والأنهار، وبائعة في الأسواق، كما دفعها أيضا للهجرة كعاملة أو خادمة في سبيل تأمين لقمة عيش لأسرتها.

يفضل المورويون استخدام مصطلح "الكفاح" بدلا من "القتال"، لأنهم يعتبرون القتال جزءًا من كفاحهم في جميع الميادين ؛ ومن ثم كان للمرأة دور ومكانة حتى وإن لم تحمل السلاح.

دخل مراسلو الجزيرة معسكرًا تابعًا لجبهة تحرير مورو الإسلامية قرب بلدة "سلطان قدرات" بمحافظة ماجنداناو، وهو أحد أكبر معسكرات الجبهة البالغ عددها ٢٦ في أرجاء الجزيرة.

في هذا المعسكر مركز نسائي متخصّص فى تعليم التمريض والإسعافات الأولية تديره "بابيدا يانغ باندا" البالغة من العمر خمسن عاما ..

تقول: "كان على شعب مورو أن يهبَّ بكل فئاته دفاعا عن نفسه ودينه، ولهذا التحقتُ بالجبهة كجندية عندما كنت شابة، وآنذاك كانت توجد عدة كتائب للنسوة". وتضيف "ثم انتقلت إلى مجال التمريض عندما تقدم بي العمر لأستمر في خدمة المقاتلين، وكذلك لأقدم خدمات العلاج للمدنيين خارج المعسكرات".

بعد التوصل إلى اتفاقية "بانجسامورو" تراجعت كثيرا أهمية دور المرأة المسلمة الموروية كجندية تحمل السلاح ، لكن برز دورها كشريكة في عمليات الإدارة والتنمية.

ولقد أُنشئت في مدينة كوتاباتو منظمة ساجاهاترا "السلام" بتشارُكٍ من الحكومة والجبهة معًا ، لدعم الاتفاقية والتخطيط للمراحل التي بعدها.

في هاتين المؤسستين وغيرهما يلفت الانتباه وجود المرأة كشريكة أساسية في إدارة المرحلة، تماما كما كانت شريكة في الكفاح قبلها، وعن ذلك قال الرئيس التنفيذي لمنظمة "بانجسامورو" محمد يعقوب "صعوبات العقود الماضية فرضت على المرأة أن تكون قادرة على التحدي والتضحية والعمل والإنجاز، ولهذا فإن وجودها ليس من باب احترام حقوق المرأة ، ولكن لأنها بالفعل شريك أساسي يفرض احترامه".

وقد زار مراسلو الجزير نت مبنى الاتحاد النسائي بمحافظة ماجنداناو ، حيث يوجد مركز تأهيل مهني تتدرب فيه عشرات النسوة والفتيات على فنون الخياطة والتجميل والطبخ والكتابة والخطابة وغيرها.

وتبيّن من الحديث إلى القائمين على المركز أن أهدافه تختلف عن الأهداف التقليدية ؛ كاكتساب المهارات وتوفير فرص العمل، بل رغبة في تقديم خدمات مميزة متقنة لعامة شعب مورو.

مديرة المركز إسميلين مكاليمباغ (٢٢ عاما) قالت للجزيرة نت "أجدادنا وجداتنا بدأوا الكفاح دفاعا عن وجود شعب مورو أمام "أعداء الإسلام"، ولحصانة هويتنا الإسلامية وعاداتنا وتقاليدنا، ونحن هنا نسعى إلى تطوير هذه الجوانب الثقافية والفنية، لنرتقي بها ونبرزها، فيسعد بها الشعب ويزداد فخرا".

التحديات المتعلقة بالتنمية

إذا نظرت من الطائرة إلى جزيرة منداناو في جنوب الفلبين يأتيك انطباعٌ بأنها غنية بمواردها الطبيعية، وأن هذا لابد أن ينعكس على مستوى معيشة السكان و لكنك إذا وصلت إليها تكتشف أن الثراء الطبيعي لم ينعكس إلا بؤسا وشقاء على سكانها.

فما إن يصل المرء إلى مطار مدينة كوتاباتو[وهي العاصمة المستقبلية]- حتى يشعر بحجم التحديات التنموية التي ستواجهها حكومة الحكم الذاتي لمناطق شعب مورو المسلم "بانجسامورو".

مطار كوتاباتو هو الوحيد الذي يصل الجزيرة بالعاصمة مانيلا، لكنه أصغر من أن يعتمد عليه لتواصل وعلاقات جيدة مع باقي أراضي الفلبين ودول العالم.

أما خارج المطار، فتبرز حقيقة الأوضاع الصعبة أكثر فاكثر؛ ذلك لأن الخدمات تكاد تكون معدومة في كوتاباتو عاصمة الحكم الذاتي ، فلا وجود لسيارات أجرة على سبيل المثال، ولا لإشارات مرور، حتى ليتخيّل الزائر لأول وهلة نها فوضى خارجة عن السيطرة، لولا اعتياد الناس على ذلك .

الكثير من السكان فقراء يعيشون في بيوت من الخشب والصفيح، على ضفاف أنهر تغرقها بين الحين والآخر.. فيها يستحمّ السكان وفيها يغسلون ملابسهم رغم تلوث مياهها ، لأن المياه النظيفة لا تصل بيوتهم رغم وفرتها.

مظاهر الفقر تسود في كل مكان بكوتاباتو، حتى في مركز المدينة الصاخب، فلا وجود لأي محلات تجارية كبيرة إلا نادرا، ولا لأي فروع أو وكالات شركات كبرى، مما أدى إلى انتشار مظاهر البطالة والتسول بشكل لافت.

يقول مراسلو "الجزيرة نت": لم يختلف الحال كلما ابتعدنا عن المدينة متّجهين إلى مدن أخرى ، بل أصبح أكثر سوءا وتخَلُّفًا ، وبدا واضحا أن نسبة الفقر طاغية في الجزيرة، وأن الجميع يحاولون تأمين قوت يومهم بصعوبة بالغة.

وإلى جانب الفقر، تبرز تحديات أمام حكومة بانجسامورو المرتقبة في مجال الصحة؛ فالمستشفيات قليلة، وأسعار الدواء -ومعظمه مستورد- باهظة بالنسبة لمستوى الدخل الذي قد لا يتجاوز ١٥٠ دولارا، حتى إن كثيرا من المرضى يشترون الدواء بعدد الحبات، لا بعدد الأشرطة أو العلب .

من بين التحديات أيضا وجود العشرات من مخيمات النازحين بسبب عقود الحرب أو الفيضانات، وهي مخيمات تكاد الحياة تكون فيها مستحيلة، فجدران بعضها من الكرتون المضغوط مع الجبس، ليس فيها دعائم تحتيّة ، ناهيك عن أن الكثير منها أنشئ بتمويل لم يكتمل، من قبل مؤسسات خيرية في دول مجاورة.

عوامل الفقر والبطالة والنزوح دفعت الكثير من الأطفال لترك مقاعد الدراسة، والعمل في مجالات شاقة لمساعدة ذويهم على العيش، فتراهم يتسولون، أو يقودون دراجات هوائية ونارية تستخدم كنوع بدائيّ لنقل الركاب .

يقول المراسلون تجولنا بين عدة مدن وبلدات وقرى في الجزيرة، فكانت بدائية التعليم قاسما مشتركا بينها، حتى أن بعض المدارس تعلم تلامذتها في الهواء الطلق، مفتقدة أبسط متطلبات الإيواء ، خالية من مقاعد للدراسة .. ولا توجد فصول مستقلة .. فكل التلاميذ يجلسون على الأرض أو على ألواح من الخشب في مجموعات متجاورة كل مجموعة تنتمى إلى صف غير الصف المجاور ، وقد يقتسم المعلمان سبّورة وحدة للشرح في آن واحد ..! وترى االتلاميذ خليطا من الذكور والإناث، ومن مختلف الأعمار ، يتعلمون باستخدام ما استطاع الآباء توفيره من دفاتر وأقلام.

والعجيب أن هذه الأوضاع البائسة لا تشكل صدمة للسكان، فقد اعتادوا عليها ويعرفون أنها تداعيات طبيعية خلفتها عقود من الحرب في الجزيرة، بين القوات الحكومية الفلبينية وحركات تحرير مورو الإسلامية والوطنية.

الرئيس التنفيذي لمنظمة "بانجسامورو" للتنمية محمد يعقوب قال للجزيرة نت إن "الحرب أتت على جميع نواحي الحياة، وأضرت بنحو ٧٠% من مناطق شعب مورو، وجعلت ٧٠% من السكان تحت خط الفقر، فهاجر الملايين منهم بحثا عن الأمن والعمل، وأصبحت أراضينا مناطق إرهابية مخيفة بالنسبة لدول وشركات العالم".

وأضاف أن "اقتصاد الفلبين يعتمد بنسبة ٢٠% على موارد الجزيرة الزراعية والبحرية والنهرية، ولكن تقاسم هذه الموارد لم يكن عادلا، بالإضافة إلى أن الحرب وتوتر الأوضاع الأمنية أبعدت الاستثمار والتجارة المحلية والخارجية عن مناطق شعب مورو".

وعن الحلول التي ستستخدمها حكومة "بانجسامورو"، قال يعقوب إن "أراضينا غنية بالنفط وبمناجم الذهب والفحم، هذا بالإضافة إلى موارد تجارة الخشب والزراعة والبحر والأنهر.. ووفق اتفاقية بانجسامورو، سيكون لدى الحكومة حق الاستفادة من مواردها، وإبرام اتفاقيات محلية ودولية بشكل مستقل عن الحكومة الفلبينية".

وأوضح أن مواد الزراعة -بمقتضى الاتفاقية الجديدة- ستكون ١٠٠% لصالح شعب مورو، وهي تشكل نحو ٦٧% من العائدات حاليا، كما أن الحكومة ستملك ٢٥% من إنتاج مناجم الذهب والفضة وغيرها، و٥٠% من إنتاج الطاقة، مشيرا إلى وجود مخزون لا يقل عن مليار برميل من النفط في بعض مناطق الجزيرة.

ولكنه أشار إلى الحاجة المُلحّة لمساعدات خارجية من دول ومنظمات مانحة، لافتا إلى أن بعض الدول دخلت في مجال التنمية وإعادة الحياة إلى طبيعتها، كاليابان وبعض دول الاتحاد الأوروبي، ومعبرا عن أسفه "لتأخر دخول الدول العربية والإسلامية في مجال مساعدة شعب مورو المسلم".

وبالإضافة إلى الجوانب الاقتصادية والخدمية والتعليمية، يرى مسؤولون في "الهيئة الانتقالية لحكومة بانجسامورو" أنهم يواجهون تحديات كبيرة في المجال الإداري، وأن الحاجة ماسة إلى تنمية ترتقي بأعداد ومستويات القادة والمسؤولين القادمين.

"في مقر الهيئة بمدينة كوتاباتو، التقينا رئيسها مهاجر إقبال، وهو أيضا رئيس الهيئة التشريعية لجبهة تحرير مورو الإسلامية التي ستقود فترة الحكم الانتقالي خلال العام ٢٠١٥."

يقول إقبال "في تقاسم السلطة والثروات حكم ذاتي حقيقي ، وإذا تم تطبيق هذه الاتفاقيات فإن الجبهة ترى أن هناك أملا كبيرا في إصلاح البلاد وأحوال الشعب، ولكن بشرط أن يكون القادة والمسؤولون الإداريون أهلا لمناصبهم ومهامهم".

ورغم الصعوبات فقد عبّر عن تفاؤله فقال "رغم أن نسبة المختصين والخبراء قليلة، فإننا سنستخدمها بشكل منظم.. لقد خضنا حربا صعبة على مدار أربعة عقود، وحققنا الكثير رغم الصعوبات، وبإذن الله سنحقق طموحاتنا مجددا، فالذي يبذل الجهد سيصل إلى نهاية الطريق، وعندنا القدرة والإرادة السياسية العالية".

وانتقد مهاجر إقبال بمرارة موقف الدول العربية والإسلامية من دعم شعب مورو، وقال "إننا بحاجة إلى الدعم، وما يحزننا أن معظم البلاد التي جاءت لدعمنا ليست إسلامية، إلا ماليزيا وتركيا وبروناي".

وأضاف "لم نر البلاد العربية الغنية.. لم يكونوا معنا خلال الأيام الصعبة، ولعل فلسفتهم ومنظورهم أنهم سيمدون يدهم إذا لم توجد أي مشاكل.. هذا جيد، ولكن الأفضل أن تكون المساعدة والدعم في الأيام الصعبة.. وهذا شيء محزن لأن معظم البلاد التي تمد يدها ليست إسلامية، كاليابان ودول الاتحاد الأوروبي".

وختم إقبال حديثه بالقول بأن "الحرب والتدمير عمل سهل ، ولكن بناء الحكومة والوطن أمر في غاية الصعوبة، ولذلك نحن بحاجة إلى الدعم المعنوي والمادي والسياسي، وخاصة من العالم الإسلامي."

الرئيس رودريجو دوتِيرْتِ

"Rodrigo Duterte" هو رئيس الفلبين الجديد ، تولى رئاسة الدولة في ٣٠يونية ٢٠١٦ ، وفى أول أسبوع من ولايته شنَّت الشرطة هجومًا شرسًا على تُجَّار المخدرات فقتلت ٦٠ تاجرًا منهم ، قاوموا الشرطة بالسلاح عندما شرعت في إلقاء القبض عليهم لمحاكمتهم .. الأمر الذى لم يجرؤ عليه رئيس فلبينيّ سابق خشية أن ينقلب عليه الوحش الكامن في أجهزة الدولة ؛ فتجارة المخدرات تمارسها عصابات مسلحة، مدعومة بكبار ضباط الشرطة وبعض ضباط الجيش الذين يحرسون حدود الفلبين الساحلية الممتدة حول أكثر من سبعة آلاف جزيرة..

فكبار التجار والمهربين وضباط الشرطة والجيش يشكلون دولة في داخل الدولة ، ويتمتعون جميعًا بثروات هائلة من التهريب والتجارة في المخدرات.. وقد وعد رودريجو دوتيرْت أثناء دعايته الانتخابية- شعب الفلبين- الذى ضجّ من نفوذ تجار المخدرات وتغلغلهم في مفاصل الدولة الفاسدة أن يخلصهم من المخدرات ومن الفساد معًا في ضربة قاضية .. كما فعل عندما كان يشغل منصب العمدة لمدينة [دافاو] في جزيرة مندناو ؛ إذ استطاع أن يطهر المحافظة في بضع سنين من تجار المخدرات ومن الفساد الإداري حتى أصبحت واحدة من أنظف وأجمل المحافظات في العالم ، بشهادة كثير من المنظمات الدولية المعنية بالتنمية الإدارية، وترقية الخدمات السكانية في العالم.

في خطابه الأول إلى الشعب الفلبيني ذكر رودريجو أن حكومته ملتزمة بكل الاتفاقات التي وقّعتها الحكومة السابقة ، فهل كان يعنى أن هذا الالتزام يشمل اتفاقية بنجسامورو للسلام التي توصلت إليها حكومة بنينو أكينو مع جبهة تحرير مورو الإسلامية.. وهل يستطيع أن

يقوم بتنفيذها رغم الصعوبات القانونية والقوى الأخرى التي تعمل للتنصّل من بنود هذه الاتفاقية..؟ -سوف نرى ماذا تتكشف عنه الأيام المقبلة ..

ولكن نود أن نضع النقاط التالية التي تعمل في صالح تحقيق هذه الاتفاقية وقد ألمحنا إلى بعض التغييرات في الأجواء عند الجانبين: الحكومة الفلبينية والثوار المسلمين ؛ فكلاهما أقدم على تنازلات مهمة لتقريب المسافة فيما بينها ، وكلاهما أصبح يرى أن هناك مصالح مشتركة تجمع بين الطرفين ، إذا خلصت النوايا ، وقام كل طرف بتنفيذ دوره المنصوص عليه في بنود الاتفاقية.

(١) المتغير الأكبر الذى تنعقد عليه الآمال الآن هو شخصية الرئيس الجديد، وهي شخصية فريدة بين رؤساء الفلبين السابقين جميعًا ، وقد أشارنا إلى بعض ملامحها ومواقفها فيما سلف من تصريحات وتصرفات .. وأول ما يلفت نظرنا هو جرأة الرجل؛ وإقدامه على اتخاذ خطوات وإجراءات غير تقليدية كان سابقيه من الرؤساء يتحرجون حتى من التفكير فيها.

(٢) يجب أن نعترف أن هناك تاريخ طويل من الصدام بين المسلمين ، وبين الاستعمار الغربي الذى امتد بتقاليده وثقافته إلى كل الحكومات الفلبينية التي أعقبته ؛ فجرت على نفس الأسلوب في التعامل مع المسلمين: القمع العسكري، والتلويح بالحلول السياسية في وقت السلم ؛ كنوع من التخدير المؤقت، حتى تحقق الحكومة نوعًا من الزحف الهادئ لتدمير المجتمعات المسلمة، وتمكين المستوطين المسيحيين من الاستقرار والاستيلاء على أراضى المسلمين وطردهم من القرى والمدن التي عاشوا فيها أحرارا لمئات السنين.

ولكن لا بد أن نعترف أن هذه الموجة قد بلغت ذروتها في عهد الدكتاتور ماركوس وأنها بقيت معلّقة في الأجواء فلم تتوقف نهائيا إلا في عهد الرئيس بنينو أكينو. علما بأن هذه السياسات القمعية ، والرغبة الكامنة في تجريد المسلمين من كل قوة وحرمانهم من الحياة الطبيعية ، تسانده ثلاث قوى أساسية متآزرة هي: أولا- االنفوذ الأمريكي في الفلبين ، وثانيا- الطبقات الاقطاعية الرأسمالية وتجار ومهربى المخدرات الكبار في القرى والمدن ، وثالثا- جنرالات الجيش الفلبيني الذين تأصل فيهم الفساد وارتبطت مصالحهم مع القوتين السابقتين.

(٣) كانت هذه التركيبة الفلبينية واضحة لكل رؤساء الفلبين السابقين ؛ وكان كل واحد منهم ، يحاول أن يتوافق معها: إما بغض البصر مثل الرئيس ماكاباجال في الستينات من القرن الماضى ، أو بالتواطؤ والتمادي، أو باتخاذ مواقف ملتوية بين القوي المتصارعة لضرب بعضها ببعض ، أو بإشغال الجيش والأمة بحروب مفتعلة مع المسلمين والشيوعيين ، كما فعل الدكتاتور فرديناند ماركوس.

ولكن لأول مرة ، ينتخب الشعب رئيسًا لاينتمى إلى هذه الطبقات ، بل يعتنق أيديولوجية إشتراكية تدعو إلى العدالة الاجتماعية ، وإعادة توزيع الثروة ، وانتشال الفقراء من هوة الفقر ؛ لسد الفجوة الهائلة بين الفقراء المعوزين وبين الأثرياء المبدّدين . وفى نفس الوقت

يؤمن بوحدة الشعب الفلبيني ، والتئام عناصره المختلفة كمدخل لتنمية شاملة ، ينتفع منها الجميع على السواء . ذلك هو "رودريجو دوتيرْتِ".

(٤) الرجل إذن- لديه طموحات كبيرة ، ولديه إدراك واضح بطبيعة التركيبة الفلبينية الخاصة ، وما تشتمل عليه من طبقات وقوى مختلفة، وعرف مثالبها وقوى الضعف فيها، كما يعرف إمكانات الفلبين وثرواتها الطبيعية والبشرية الهائلة ..

ولقد بدأ حياته السياسية بالقضاء على الفساد الإداري وتجارة المخدرات كأولوية مطلقة لأي خطوات إصلاحية أخرى .. وقد أعلن بالفعل عن اتجاه حكومته لإصدار عفو عام عن جميع االشيوعيين المناوئين للسلطة التقليدية ، ودعا زعيمهم Jose Sison "هوسى سيسون" هو وقيادات الجناح العسكري للعودة من منفاهم الأوربي إلى الفلبين ، للجلوس على مائدة حوار لإيجاد حلول سلمية للتمرد المزمن والحرب المتواصلة بينهم وبين السلطة فى الفلبين.

(٥) من أبرز الأولويات التي تشغل عقله في الوقت الراهن وتكاد تستولى على وقته: إصلاح أوضاع المواصلات والاتصالات في مانيلا ، وتدعيمها بخطوط السكك الحديدية. فهو يرى أن الاستثمار القوي يحتاج إلى خطوط مواصلات واتصالات لنقل السلع والرسائل .. ومن القضايا العاجلة الأخرى معالجة مشكلة مزمنة أخرى بين الفلبين والصين على مناطق وجزر متنازع عليها في بحر الصين الجنوبي ؛ فرغم أن محكمة دولية ، قد أصدرت حكما لصالح الفلبين ، إلا أن هذه المحكمة ليست مخوّلة لتنفيذ أحكامها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يري رودريجو تصفية هذا النزاع ودّيا مع الصين مباشرة مع مراعاة مصلحة البلدين ، لذلك فهو يرتّب زيارة تصالحية إلى الصين في أقرب وقت ، رغم أن أمريكا تبدى تأفُّفها من هذه الخطوة .. حتى لا تُضار حركتها في بحر الصين بسوء نتيجة للتوافقات الإقليمية ، فإن إنهاء النزاع يبطل الذريعة الأمريكية، بضرورة تواجدها في المنطقة لحماية حلفائها وتنفيذ اتفاقيات الدفاع المشترك بينها وبين أتباعها . ويفهم رودريجو أن هذه حجة أمريكية لاستمرار النفوذ الأمريكي والقواعد العسكرية الأمريكية في جزر الفلبين.

(٦) هذا الرجل الذى كان يبدو لى جلْفًا غليظًا بمظهره الخشن وتصريحاته التصادمية خلال فترةالحملة الانتخابية ، أخذ يتكشَّف لى عن شخصية مثقّفة واعية بعد تسلّمه مسئولية السلطة كرئيس للبلاد .. ومن أدلة ذلك إدراكه لأهمية إتاحة المعلومات وتداولها بحرية ؛ فرغم تصادماته السابقة مع وسائل الإعلام كان من أوائل ما لفت نظرى مساندته لمشروع قرار عاجل في البرلمان لإتاحة المعلومات الحكومية بالقانون، لضمان الشفافية في سلوك الحكومة ، ونقدها من جانب المراقبين والمحللين.

عندما كان عمدة لمدينة دافاو قام بتعيين أحد المسلمين في منصب نائب له ممثلا للمسلمين في الحكومة المحلية .. ورفض منصب وزير الداخلية الذى عُرِضَ عليه أربع مرات في عهد كل من الرؤساء: فيدِلْ راموس، وجوزيف أسترادا، وجلوريا ماكاباجال أرويو، وبنينو أكينو . ورفض كذلك الترشّح لجائزة أفضل عمدة في العالم لسنة ٢٠١٤م قائلا: "إنا لم أفعل أكثر من أداء وظيفتى"..

ومن بين الجوائز العالمية الأخرى التي رفضها لمدينة دافاو: جائزة جمعية السرطان الأمريكية ، وجائزة منع التدخين من سنغافورة.

ومن قراراته الشهيرة في دافاوْ: قرار مجلس المدينة سنة ١٩٩٤لفرض تحريم بيع وخدمة وتعاطى الخمور من الساعة الواحدة إلى الثامنة صباحًا .. وقرار بتخفيض سرعة جميع أنواع السيارات في مدينة دافاوْ .. وقرار بتفعيل إجراءات منع التدخين وإطلاق الألعاب النارية في المدينة ؛ للمحافظة على صحة وأمن سكان المدينة.. وإلى جانب إصلاحات كثيرة في المدينة- يعتبر رودريجو أول من أدخل خدمة الهاتف المجاني رقم "٩١١" لطلب الإسعاف السريع وفى الحالات الصحيةالحرجة- ربما في آسيا كلها.

كما فرض على المراكز التجارية وضع كاميرات مراقبة على مداخلها ومخارجها .. وأصدر لأول مرة في الفلبين ْقانونًا سماه "الماجْنا كارتا للنساء" ، يعترف ويحمي جميع حقوقهن ؛ إذ يمنع التمييز والتحيز ضد المرأة الفلبينية.

وانخفضت معدلات الجريمة في عهده ، انخفاضًا مدهشًا ؛ فقد كانت دافاو مشتهرة بسمعتها السيئة كأكبر قلعة للجرائم في الفلبين ، ولكنها تحولت على يديه إلى أن تصبح أكثر مدن الفلبين أمنا ؛ حتى ليقال أنها أصبحت سنة ٢٠١٥م ضمن أكثر ٩ مدن آمنة في العالم.. وقد صاحب هذا التغيير زيادة في عدد سكان المدينة [في غضون تسع سنولت فقط] ارتفع تعداد سكان المدينة من مليون و١٢٠ألف إلى مليون و ٤٤٠ألف نسمة

فلما تولى رودريجو منصب الرئاسة الفلبينية كان من أوائل قرراته: تعيين أحد وزرائه للإشراف على جميع المؤسسات المعنية بتخفيض نسبة الفقر في الدولة .. وأنشأ خدمة هاتف الطوارئ رقم ٨٨٨٨ المتاح لكل المواطنين في الجمهورية ..

محادثات السلام مع المسلمين:

يلوّح رودريجو في تصريحاته إلى المسلمين بأنه يعتزم عقْدَ محادثات مع المجموعات المختلفة في منطقة مندناو وفى مقدمتها جبهة تحرير مورو الوطنية وجبهة التحرير الإسلامية لبحث تفاصيل خطته فى الحكم الذاتي .. وحث القيادات على التركيز على نهج السلام .. قائلا: "إننا كأمة واحدة علينا أن نجلس معًا .. لماذا يقتل بعضنا بعضًا.. دعونا نبنى أمة مؤسسة على السلام والتفاهم"

وفى هذا السياق أكد مستشاره للسلام "هيسوس دوريسا" Jesus Dureza أن محادثات -غير معلنة- بالفعل جارية بين الحكومة وبين قيادات المسلمين .. وأنه مما يسهل الحوار بيننا أن الرئيس وفريقه في المحادثات يعرفون هؤلاء القادة معرفة شخصية ، وتجمعنا جميعًا رغبة واحدة لإنهاء النزاع والوصول إلى اتفاق...

ولكن لأن رودريجو لم يتحدث قط صراحة عن اتفاقية بنجسامورو للسلام ، ولم يذكرها بالاسم- وهي آخر وأبرز الاتفاقيات الموقّعة بين الدولة وبين جبهة تحرير مورو الإسلامية- وأن ما يتحدث عنه الرئيس رودريجو هو مشروع جديد للحكم الفدرالي الشامل فى الفلبين- فإن جبهة تحرير مورو الإسلامية تشعر بالقلق؛ وهذا ما عبّر عنه زعيمها مراد إبراهيم بقوله: "إن التصريحات الصادرة عن الرئيس الفلبيني وفريقه- تبعث برسائل غير واضحة بخصوص مستقبل عملية السلام المفروض أن يبدأ تنفيذها هذاالعام ٢٠١٦م" .. لذلك دعا الرئيس الفلبيني إلى إنجاح اتفاقية السلام "بنجسامورو" على وجه التحديد.

وقد زادت مخاوف المسلمين من تراجع الحكومة عن التزاماتها في تنفيذ اتفاقية بنجسامورو صدور تصريحات مثل تصريح للنائب المنتخب "بانتالون ألفاريز" الذي يتوقع أن يصبح الرئيس المقبل لمجلس النواب، قال فيه إنه لا حاجة للحديث عن إقرار قانون بنجسامورو، وأن قضية شعب مورو ستعود إلى المربع الأول.

كما أشار "ألفاريز" إلى أن حكومة الرئيس دوتيرتي ستركز جهدها على التحول بالبلاد من النظام الرئاسي إلى النظام الفدرالي في غضون السنوات الثلاث المقبلة، وحسب رأي المتحدث فإن هذا التحول سينطوي على حل لمشكلة مورو، على أن يستفتى الفلبينيون عام ٢٠١٩ بهذا الشأن حسب تصوره.

وأثار رفض الكونجرس قانون بنجسامورو الأساسي مخاوف واسعة من انهيار عملية السلام وعودة جبهة مورو الإسلامية إلى خيار السلاح ، لا سيما أن فصائل ومنظمات إسلامية أخرى على رأسها منظمة تحرير مورو الوطنية- تبدى التشكُّكَ وعدم الثقة في وفاء الحكومة الفلبينية بتعهداتها ؛ كما صنعت باتفاقيات سابقة .

ولا بد هنا من توضيح نقطة جوهرية لمزيد من الفهم لموازين القوى في الصراع بين الحكومة الفلبينية وبين المسلمين ؛ فالرئيس رودريجوا كثيرًا ما يتحدث عن مجموعات المسلمين كدأب الحكومات الفلبينية السابقة التي كانت تتخذ من انقسام المسلمين إلى فصائل مختلفة ذريعة للاستقواء عليهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لتبرير تقاعسها عن حل مشكلة المسلمين التاريخية والمزمنة .. واللجوء دائما إلى العنف والمعالجات العسكرية والأمنية بحجة أنها لا تجد جبهة واحدة تمثل جميع المسلمين للتفاوض معها .. ومن ثم تضطر لعقد اتفاقات جزئية مع فصيل من الفصائل ؛ مما يتسبّب في تعميق الانقسام بين الفصائل المسلمة..

ويزيد الطين بلّة ظهور فصيل صغير منشق على جبهة تحرير مورو الوطنية في جزيرة هولو باسم "مجموعة أبو سيّاف" ، وهي في الحقيقة عصابة إرهابية من صناعة المخابرات الأمريكية والفلبينية بقصد تشويه حركات المسلمين التحريرية الجادة ، وإشغال الرأي العام بأعمالها الإرهابية التي عادة ما تدور حول خطف الرهائن من الزوار الأجانب وفرض إتاوات علي ذويهم كشرط للإفراج عنهم وإلا قتلتهم .. علمًا بأن كل فصائل المقاومة المسلمة تتبرأ من هذا السلوك وتستنكره ، ولكن لا سلطان لها على مرتكبيه فتعمل على إيقافه.

ولكن جبهة تحرير مورو الإسلامية لها شأن آخر يحتاج منا إلى نظرة متأنية خصوصًا وأنها أكبر قوة مسلحة خاضت ضد قوات الحكومة معارك شرسة ، وقد استطاعت بالتفاوض أن تستخلص من الحكومة الفلبينية اتفاقية بنجسامورو للسلام .

نبذة عن جبهة تحرير مورو الإسلامية:

زعيم الجبهة الحالي هو "مراد إبراهيم" الشهير بالحاج مراد متخرّج من كلية الهندسة تخصص هندسة مدنية ، و يبلغ من العمر الآن ٤٨ عاما ، مسلم ملتزم .. تبنّى الوسطية في الفكر والسلوك من الإخوان المسلمين .. وأثناء دراسته الجامعية في عام ١٩٧٢ انضم إلى "الجبهة الوطنية لتحرير مورو" التي كان يتزعمها نور ميسواري.. وقد علمنا فيما سبق أنه في عام ١٩٧٧ ، انشقت مجموعة بزعامة سلامات هاشم عن الجبهة الوطنية وأسست "جبهة تحرير مورو الإسلامية"، فالتحق بها مراد إبراهيم عام ١٩٨١.

وترقى في الصفوف القيادية للجبهة حتى أصبح نائب رئيسها للشؤون العسكرية، ثم رئيس قوات بانجسامورو المسلحة ، الذراع العسكرية للجبهة وصاحبة التأثير القوي في القرار داخلها. وقد تولى قيادة الجبهة إثر وفاة زعيمها ومؤسسها الأول سلامات هاشم بنوبة قلبية يوم ١٣ يوليو ٢٠٠٣ م. ويُعتقد أنه هو مهندس التحالف بين جبهته و"الجبهة الوطنية الديمقراطية" ذات التوجه الاشتراكي.

يشهد له أعداءه قبل أصدقائه بالمهارة السياسية والعسكرية معًا .. وبصبره وقوة احتماله على المفاوضات الطويلة والصعبة ، وقد تمكن من إقناع المسلمين بأن خيارهم التقليدي: الحرب والانفصال- ليس خيارًا حتميًّا ، وأن العيش بسلام في ظل حكومة مركزية تتقاسم السلطة والصلاحيات مع حكومة إسلامية ذات حكم ذاتي موسّع في الجنوب الفلبيني- هو أفضل الحلول ؛ ذلك إذا أرادت الحكومة الفلبينية هذا الاختيار وأخلصت في تطبيقه كما عبّر عنه الرئيس الفلبيني بنينو أكينو.

يوصف مراد إبراهيم بأنه يتحلى بـ"برودة الأعصاب، وإتقان حسابات التكتيك العسكري"؛ مما جعله "شخصية بارزة" في مفاوضات السلام التي جرت عام ٢٠٠١ بين جبهة مورو والحكومة الفلبينية، وأدّت -بعد ٣٢ لقاء تفاوضي- إلى توقيع "اتفاق إطار" بينهما يوم ١٥ أكتوبر ٢٠١٢، ينص على إقامة منطقة حكم ذاتي للمسلمين جنوبي الفلبين بحلول عام ٢٠١٦ تسمى "اتفاقية بانجسامورو للسلام."

ويرى مراد إبراهيم -في حوار مع الجزيرة ضمن برنامج "لقاء اليوم" بُث يوم ٩ ديسمبر ٢٠٠٨- أن جبهته "بقيت على قيد الحياة أكثر من ثلاثين سنة وهي تقاتل الحكومة الفليبينية، وقد استطعنا ونجحنا في تأسيس ووضع لجاننا السياسية التي تضم أكثر من ٨٠% من سكان مورو، وتوصلنا إلى تأسيس جيش قوي يضم أكثر من مائة ألف رجل."

وأضاف "إن جبهة تحرير مورو الإسلامية بالغة القوة ، كتنظيم سياسي وعسكري، ولكننا نعتقد أنه لا بد من حل سياسي لهذه المشكلة، يقوم على الاعتراف بالهوية المستقلة لشعب مورو كأول شعب وُجد في هذه المنطقة قبل وصول المستعمرين إلى البلاد، وكانت لديه حكومة تسمى.. سلطنة ماجندناو."'

وبعد توقيع الاتفاق المذكور صرح للجزيرة -في حلقة أخرى من البرنامج ذاته تم بَثُّها في أول يناير ٢٠١٣- قائلا إن "هذا الاتفاق يحدد بشكل عام مستقبل العلاقة بين شعب بانجسامورو [شعب مورو في مناطق مندناو وسولو والجزر الأخرى] وبين الحكومة الفلبينية ، ويسمح بإقامة حكومة بانجسامورو في جنوبي الفلبين."

وأكد أن قيام هذه الحكومة "سيمنحنا فرصة لتطوير وتنمية وطننا وشعبنا، وسيمكِّنُنَا من العيش كشعب منفصل تحت سلطة الحكومة الفلبينية في علاقة ثنائية متوازية ؛ فهذه ليست دولة منفصلة بل هما شعبان منفصلان في دولة واحدة."

وللإنصاف لابد أن نشير إلى أن هناك اتجاه قوي بين كثرة من المسلمين تضع ثقتها في الرئيس رودريجو ، وتتوقع خيرًا كثيرًا على يديه ، وخصوصًا بين أولئك القادة من المسلمين الذين عايشوا تجربة الرجل في دافاو لأكثر من عشرين سنة إذ يشيدون بسياسة عدم التمييز التي انتهجها خلال توليه منصب محافظ دافاو.

وفى السياق نفسه يؤكد رئيس المدارس الإسلامية الشاملة في دافاو "جمال منيب"- أن نسبة تأييد المسلمين لدوتيرتي تتجاوز ٨٠%، مشيرا إلى أن المدارس الإسلامية في مدينة دافاو والبالغ عددها ٤٩ مدرسة ، تحظى بدعم حكومي مثل صرف رواتب للمدرسين، وهو ما لم يحدث في أي من المناطق الفلبينية حتى التي يحكمها قادة مسلمون مثل مدينة كوتاباتو.

وبالنظر إلى التسهيلات التي قدمها دوتيرتي للمسلمين في دافاو وإشراكهم في الإدارة، يرى مفتي المدينة "محمد يوسف باسيكان" أن تجربة تحقيق الأمن في المدينة يمكن أن تعمم في جميع أنحاء الفلبين ، إضافة إلى تجربته في تطبيق أنظمة اجتماعية واقتصادية تحقق مصالح جميع سكان المدينة بلا تمييز ..

ويضيف باسيكان أن دافاو هي المدينة الوحيدة في الفلبين التي تنتهج سياسةَ محافِظَة مثل: حظر التدخين في الأماكن العامة، وحظر التجول على المراهقين بعد الساعة العاشرة ليلا، وحظر تقديم الخمور وبيعها في وقت متأخر من الليل، ومنع استخدام ألعاب المفرقعات في الحفلات العامة والوطنية.

هناك إذن مواقف متباينة للمسلمين من سياسة رودريجو المستقبلية بالنسبة لعملية السلام ؛ فبينما تتحفظ عليها جبهة تحرير مورو الإسلامية ، وتتطلع إلى أن يكون مشروع اتفاقية بنجسامورو هو البؤرة التي يجب أن يركّز عليها النظام الجديد ، بعرض مشروع قانون الحكم الذى أنجزه المسلمون ورضوا به- على البرلمان مرة أخرى- مع السعي الجاد لتغيير بنود الدستور الفلبيني التي يحتج بها البعض بأنها تمنع هذا النوع من الحكم الذاتي الذى تنص عليه

اتفاقية بنجسامورو، وألا يعلّق رودريجو هذه العملية أو يضعها في المربع الأول مرة أخرى كما يصرح أتباعه- حتى تتوصّل حكومته إلى صيغة جديدة لمشروع فدراليته التي يعتقد أنها هي الحل الأمثل لكل مشاكل الأقليات في الفلبين ومنها مشكلة المسلمين .. وإلا فلن تضع جبهة مورو سلاحها حسب اتفاقية السلام الموقعة .. ولن تستقر أوضاع الفلبين ، وقد تتفجّر الاشتباكات المسلحة من جديد وتدفع البلاد كلها إلى مآلات مأساوية لكلا الجانبين.

ولا يغيب هذا الخطر عن وعي بعض الشخصيات المرموقة الذين شاركوا كممثلين للحكومة الفلبينية في المفاوضات الطويلة التي أثمرة اتفاقية بنجسامورو للسلام .. من أمثال "ميريام كورونيل- فيرير" التي قالت في بيان لها : "إنه من الممكن تمرير مشروع الاتفاق ، خلال اجتماع مجلس الشيوخ القادم ، واتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة لتعديل الدستور، بشكل متوازٍ؛ فإن إجراء تعديل دستوري بهذه الأهمية، قد يتطلب الكثير من الدراسة والمشاورات، وقد يستغرق سنوات.. لايجب تعليق إجراءات تنفيذ الاتفاقية فيها..
فإن تعليق الإجراءات من شأنه أن يثير الشكوك لدى المسلمين ، ويؤدّى إلى صدامات لا تُحْمد عقباها .. ولذلك شدّدت "كورونيل- فيرير" في تحذيرها للحكومة من أن تأخير عملية السلام "سيحول دون استقرار الحكومة الجديدة ، في حين أن البدْء في تفعيل الإجراءات االمنصوص عليها في اتفاقية بانجسامورو ، من شأنه أن يقطع الطريق على الشكوك وسوء الظن، ويمنع القلق والتوترات ؛ فتتوقف أعمال العنف ، وينفسح المجال لكل طرف لإثبات حسن نواياه .. بحيث تزداد الثقة المتبادلة .. خصوصًا إذا شرعت الحكومة فورًا في تطبيق برامجها الاجتماعية والاقتصادية والتنموية في المناطق الإسلامية ، وتعزيز التعاون الأمني بين الحكومة وجبهة تحرير مورو الإسلامية.

وأحسب أن رودريجو دوتيرتي أذكى وأكثر حكمة من أن يترك زمام الأمور لتفلت منه ، وهو يعلم أن فرصة وجوده في السلطة ، مع القبول الواسع له في أوساط المسلمين ، إلى جانب خبرته الطويلة في الإصلاح المجتمعي ، وجرأته على اقتحام المعضلات والتأييد الكبير له من الشعب الفبيني – كل ذلك – يجعله في وضع يمكّنه من إنجاز سلام عادل مع المسلمين ، ويخلّص بلاده من أكبر مشكلة مزمنة فيها- أعاقت تقدمها قرونًا ، وبدّدت مواردها في حروب مهلكة لا طائل من ورائها.

المراجـــع

الأجنبية:

Bibliography

- *Agoncillo, Teodoro A. (1990). History of the Filipino People (8th ed.). Garotech Publishing. ISBN 9718711066.*
- *Armes, Roy (1987). Third World Film Making and the West. University of California Press. ISBN 9780520908017.*
- *Battistini, Lawrence H. (1950), The United States and Asia. Newyork.*
- *Cavanna, J. MA. (1961). Rizals Defensa- A key to understanding Rizals,Life, Works, and writings. Manila.*
- *Chandler, David P.; Steinberg, David Joel (1987). In Search of Southeast Asia: A Modern History (revised 2nd ed.). University of Hawaii Press. ISBN 0824811100.*
- *De Borja, Marciano R. (2005). Basques in the Philippines. University of Nevada Press. ISBN 0874175909.*
- *Dumont, Jean-Paul (1992). Visayan Vignettes: Ethnographic Traces of a Philippine Island. Chicago: University of Chicago Press. ISBN 0226169545.*
- *Fox, Robert B. (1970). The Tabon Caves: Archaeological Explorations and Excavations on Palawan. National Museum. ASIN B001O7GGNI.*
- *Friis, Herman Ralph. ed. (1967). The Pacific Basin: A History of Its Geographical Exploration. American Geographical Society.*
- *Go, Julian; Foster, Anne L. (2003). The American Colonial State in the Philippines: Global Perspectives. Duke University Press. ISBN 0822330997*
- *Halili, Maria Christine N. (2004). Philippine History. Rex Bookstore. ISBN 9712339343.*
- *Hayden, Joseph Ralston. (1942). The Philippines: A Study In National Development. N.Y., The Macmillan Comp.*

- *Hirahara, Naomi (2003). Distinguished Asian American Business Leaders. Greenwood Publishing. ISBN 1573563447.*
- *Kurlansky, Mark (1999). The Basque History of the World. Nueva York: Walker & Company. ISBN 0-8027-1349-1.*
- *McAmis, Robert Day (2002). Malay Muslims: The History and Challenge of Resurgent Islam in Southeast Asia. Wm. B. Eerdmans Publishing. ISBN 0802849458.*
- *Macaraya, Tocod D. (1963). A Study of Governmet policies for Governing Philippino Muslims. Manila.*
- *Majul, Cesar Adib. Mabini and the Phlippne Revolution. (n.d.)*
- **Molina, Antonio. (1961). *The Philippines: Through the Centuries*. Manila: University of Sto. Tomas Cooperative.**
- *Munoz, Paul Michel (2006). Early Kingdoms of the Indonesian Archipelago and the Malay Peninsula. Singapore: Editions Didier Millet. ISBN 9814155675.*
- *Osborne, Milton E. (2004). Southeast Asia: An Introductory History (9th ed.). Allen & Unwin. ISBN 1741144485.*
- *Oxford Business Group (2009). The Report: Philippines 2009. Oxford Business Group. ISBN 1902339126.*
- *Price, Michael G. (2002). America at War: the Philippines, 1898–1913. Westport, CT: Greenwood. ISBN 0-275-96821-9.*
- *Rvenholt, Albert.* **(1964). The Philippnes: A Young Republic on the Move. New jersy: De Van Ostrand comp.**
- *Rowthorn, Chris; Bloom, Greg (2006). Philippines (9th ed.). Lonely Planet. ISBN 1741042895.*
- *Scott, William Henry (1994). Barangay: Sixteenth-century Philippine Culture and Society. Ateneo de Manila University Press. ISBN 9715501354.*
- *Senate Committee on National Minorities. (1963). Report on the Problems of Philippine Cultural Minorities. Manila: Congress of the Philippnes.*
- *Solheim, Wilhelm G., II (2006). Archeology and Culture in Southeast Asia. University of the Philippines Press. ISBN 9789715425087.*
- *Tarling, Nicholas (1999). "Part Two – From c. 1500 to c. 1800". The Cambridge History of Southeast Asia 1.*

Cambridge, RU: Cambridge University Press. ISBN 0521663709.

- *Tarling, Nicholas (2000). "From World War II to the Present". The Cambridge History of Southeast Asia 4. Cambridge University Press. ISBN 0521663725.*
- *United Nations Development Programme. (2009). "Table G: Human development and index trends, Table I: Human and income poverty". ISBN 978-0-230-23904-3.*
- *Zafra. Nicolas. (1947). Reading in Phhilippine History. Manila: University of the Philippines.*
- *Zaide, Gregorio F. (1957). Philippine Political and Cultural History. Philippine Education Co.*
- *Zaide, Sonia M. (1994). The Philippines: A Unique Nation. All-Nations Publishing Co. p. 354. ISBN 971-642-071-4*
- *Zanini, Gianni (1999). Philippines: From Crisis to Opportunity : Country Assistance Review. World Bank Publications. ISBN 0821342940.*
- *Zialcita, Fernando Nakpil (2005). Authentic Though not Exotic: Essays on Filipino Identity. Quezon City: Ateneo de Manila University Press. ISBN 9715504795.*

Articles In Magazines:

- *Legarda, Benito, Jr. (2001). "Cultural Landmarks and their Interactions with Economic Factors in the Second Millennium in the Philippines". Kinaadman (Wisdom) A Journal of the Southern Philippines 23: 40.*

- **"The Maguindanao Sultanate", Moro National Liberation Front web site. "The Political and Religious History of the Bangsamoro People, condensed from the book *Muslims in the Philippines* by Dr. C. A. Majul." Retrieved January 9, 2008.**
- *Jubair, Salah. "The Japanese Invasion". Maranao.Com. Retrieved 23 February 2011*
- *. "Philippine GDP Growth Beats Estimate in Boost to Aquino Goal". Bloomberg News. Retrieved September 21, 2014.*

- *"Poverty and regional development imbalance"*. *Philippine Daily Inquirer*. *March 5, 2014*..

المراجع العربية:

- إبن بطوطة "أبو محمد بن عبد الله المغربي". تحفة الأنْظار في عجائب الأمصار. القاهرة. (بدون تاريخ).
- إبن الوردي "زين الدين أبو حفص عمر". خريدة العجائب. القاهرة: ١٨٦٣
- أنيس منصور. حول العالم في ٢٠٠يوم. القاهرة: ١٩٦٥
- بانيكار، ك. م. آسيا والسيطرة الغربية. ترجمة عبد العزيز جاويد. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢
- حسين فوزى (الدكتور). حديث السندباد القديم. القاهرة ١٩٣٤
- زفايج، استيفان. ماجلان قاهر البحار. ترجمة حبيب جاماتى. القاهرة (بدون تاريخ).
- محمد عبد الرءوف (الدكتور). الملايو: وصفوانطباعات. القاهرة ١٩٦٦.
- محمد يوسف عدس. الإمبريالية الأمريكية من الغطرسة إلى الانهيار. القاهرة: مكتبة الإمام البخاري، ٢٠١٣م (ص ٢٩ وما بعدها).
- محمد يوسف عدس. البؤساء : مجموعة قصص فلبينية للكاتب بِييتِفِنيدو سانتوس. القاهرة دار النشر الدولية، ١٩٨٥.
- محمد يوسف عدس. الفلبين. (سلسلة شعوب العالم ٢٠). القاهرة : دار المعارف ١٩٦٩.
- محمد يوسف عدس. الصعود إلى الهاوية: حكاية شعب يسقط طاغية، الموقع الرسمي (*http://www.myades.com*).
- هاريسون برايان. موجز تاريخ جنوب شرق آسيا. ترجمة سعد أحمد حسين . القاهرة (بدون تاريخ).
- هاو، سونيا. في طلب التوابل. ترجمة محمد عزيز رفعت. القاهرة ١٩٧٥.
- نقولا زيادة. الرّحالة العرب. القاهرة. ١٩٦٥.

تعريف بالمؤلف
للدكتور كمال عرفات نبهان

الأستاذ محمد يوسف عدس:

- مفكر وكاتب موسوعي ، جمع بين الفلسفة والمكتبات والمعلومات والاقتصاد والسياسة والإدارة والتاريخ ..
- ولد فى قرية بهوت بالدقهلية (مصر) سنة ١٩٣٤م. ولهذه القرية تاريخ مشهور فى الثورة على الاقطاع ..
- تعلم فى مدارس بهوت والزقازيق والمنصورة ، وتخرّج من قسم الدراسات الفلسفية بآداب جامعة القاهرة ، عام ١٩٥٧م. والتحق -فيما بعد- بالدراسلت العليا فى أستراليا.
- كان من أوائل من عملوا أمناء متخصِّصين للمكتبات المدرسية ، وبدأ عمله سنة ١٩٥٨ بمدرسة طوخ الثانوية ؛ فكان رائدًا لحركة ثقافية فى هذا المجتمع خلال الستينات من القرن العشرين.
- عمل مديرًا للمركز الثقافي المصري فى الفلبين من ١٩٦٤-١٩٦٥. ثم موجهًا للمكتبات المدرسية فى محافظة القليوبية ؛ وأنشأ أول مكتبة سمعية فى مصر، وعدة مكتبات أخرى للإطفال ، واهتم بالدراسات التحليلية لأدب الأطفال ، وله فى هذا المجال مقترحات إصلاحية ..
- هاجر إلى أستراليا عام ١٩٧١، وعمل خبيرًا بمكتبة جامعة "بندجو" بولاية فكتوريا من ١٩٧١-١٩٧٤م .
- انتقل سنة ١٩٧٤ إلى المكتبة القومية الاسترالية فى كامبرا (العاصمة الفدرالية) ليسهم فى إصدار الببليوجرافيا الوطنية ، وفى تطوير المكتبة الوطنية للأفلام .. وقد تبنّت مكتبة أستراليا الوطنية مشروعه لإنشاء أرشيف لشخصيات المستقبل؛ بجمع ماينشر عن الشباب المتميز فى شتى المجالات بالصحف والمجلات، وإنشاء ملف خاص بكل واحد منهم تجمع فيه كل القصاصات الصحفية، مما يشكل سيرة تراكمية لأخباره وتطورحياته وانجازاته.

- أتاحت له المكتبة القومية(أثناء العمل) فرصة الالتحاق بالدراسات العليا بجامعة كانبرا؛ فأتم دراسة المكتبات والمعلومات وإدارة المؤسسات خلال ثلاث سنوات انتهت سنة ١٩٧٧.
- فى سنة ١٩٨٠أنتدبته منظمة اليونسكو خبيرا ليشرف على إنشاء وتجهيز مكتبات جامعة قطر الجديدة، ووضع سياسة للتزويد وبرامج لتدريب الأمناء والعاملين بها، وإنشاء وسائل منهجية لتقييم الأداء الوظيفي.

- فى وقت لم يكن هناك شيئ إسمه شبكة الإنترنت أنشأ بالمكتبة نظاما إليكترونيا للاتصال بقواعد المعلومات العالمية ، وذلك لخدمة الباحثين وطلاب الدراسات العليا، بالاطّلاع على أحدث المقالات والأبحاث العلمية، وخلاصات للرسائل الجامعية فى شتى المجالات العلمية.
- تولى إدارة مكتبات جامعة قطر بين ١٩٨٧ و١٩٩١م لاستكمال مشروع ميكنة المكتبات.
- له العديد من الدراسات فى علم المكتبات وتكنولوجيا المعلومات ، وإسهامات عديدة فى المؤتمرات والندوات حول تطوير المكتبات الجامعية بدول الخليج .

- انتدبته منظمة اليونسكو كمستشار لها فى مهمات خارج قطر، وموافاتها بتقارير ميدانية، عن تطوير الخدمات المكتبية، ونظم المعلومات: فى سلطنة عمان ، واليمن الجنوبية ، والبحرين . كما انتدبته فى بعثة خاصة إلى مجلس الوحدة الاقتصادية العربية (كان مقره حيذاك فى عمّان - الأردن) ، وإلى إدارة الأزهر بالقاهرة لتقديم مقترحات تساعد فى تطوير مكتبة الأزهر الجديدة، ومكتبة جامعة الأزهر..

- في أثناء عمله وخلال عشر سنوات قضاها فى قطر، كانت له إسهامات ونشاطات عامة متعددة، فى مجالات مختلفة: فقد كان من الأعضاء المؤسِّسين لمشروع " إسهامات المسلمين فى الحضارة العالمية" الذى استهدف اختيار مائة كتاب من أبرز الكتب العربية التى أعتبرت ركائز هذه الحضارة فى شتى مجالات المعرفة العلمية والفكرية، وإعادة نشرها وترجمتها إلى اللغات الحية الكبرى لتعريف العالم الغربى بحقيقة ما توصّل إليه العقل المسلم فى تقدّم الحضارة العالمية.

ودعته الإذاعة القطرية لتقديم سلسلة من الحوارات والأحاديث حول القراءة، والتثقيف الذاتى.. وصدرت له مجموعة من المقالات فى مجلة "الدوحة" و "مجلة التربية" القطرية، وصحيفة الشرق القطرية، وغيرها من الصحف والمجلات، كانت تدور معظمها حول: ،الاستخدام الأمثل لموارد المكتبات، والتعريف بما طرأ من تقدمات فى هندسة المعلومات ، واستخدامها فى مجالات التربية والتعليم، وتنمية التحصيل المعرفي لدى التلاميذ .. وتهيئة المعلّمين لعصر ثورة المعلومات..

- عاد إلى مصر فى يولية ١٩٩١ ليتفرغ للبحث والكتابة عن قضايا الاقتصاد الإسلامي ، وعن الأقليات المسلمة المضطهدة فى العالم ، وعن الظلم الإمبريالي للشعوب المستضعفة فى العالم الثالث .. وكشف الأقنعة عن مننظمات دولية تتستّر خلف شعارات التنمية ، مثل البنك والصندوق الدوليين ، ومنظمة التجارة العالمية .. وكشف عن التطهير العرقي وعمليات الاستئصال والإبادة ضد المسلمين فى البوسنة وكسوفا ومقدونيا والفلبين والشيشان وآسيا الوسطى ..
- كتب عن شخصيات مؤثرة فى العالم (إيجابًا وسلبًا) منها : على عزت بيجوفيتش ، ومحمد أسد ومحمد إقبال .. وجورج جالاوي ، وجورج دبليو بوش ، وديك تشينى..
- بلغت كتبه المنشورة ٢٦ كتابًا ، وكتبه تحت الطبع ٤ كتب.. إلى جانب مئات المقالات والأبحاث المنشورة فى الصحف والمجلات العربية ..

تطورت مكتبة جامعة قطر في فترة إدارته لها تطورا سريعا وملحوظا: فمن ناحية المقتنيات- إرتفع مجموع الكتب من ٢٠ألف مجلد سنة ١٨٨٤ إلى ٢٥٠ ألف مجلد، وارتفعت طاقة الفهرسة والإعداد الفنى للكتب إلى ٣٧ألف مجلد فى العام وهى طاقة يندر وجودها فى المكتبات الكبرى وفقا للمستويات المعيارية المعروفة، وزادت مقتنيا المكتبة من الدوريات العلمية من ١٥٠ [عنوان] دورية باللغة العربية واللغات الأجنبية إلى ألفيْ دورية ، وهو نفس الرقم الذى كانت تفخر باقتنائه مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وهى مكتبة قديمة وعريقة..

كما أضيف إلى مقتنيات المكتبة الأعداد السابقة للمجلات العربية التى توقفت عن الصدور مثل: الرسالة، والثقافة، والمنار، وغيرها، وعدد كبير من المخطوطات العربية، والرسائل الجامعية، كما شملت مجموعات المكتبة أوعية أخرى للمعلومات كالميكروفيلم والميكروفيش، والتسجيلات الصوتية ، والشرائح المصورة.. وكانت هذه المواد تُجلب من شتى بقاع العالم، فقد أنشئ بالمكتبة قسم متخصص للتزويد يضم مجموعة من الخبراء المدربين، كانت مهمتهم بحث ومتابعة مصادر المعرفة فى كل

مظانّها بشتى بقاع العالم.. وأصدرت المكتبة عددا من الببليوجرافيات المطبوعة بمقتنياتها المختلفة ، لخدمة البحث العلمى وطلاب الدراسات العليا..
صمم للجامعة برنامجا للدراسات العليا فى المكتبات والمعلومات، لتأهيل الراغبين من الخريجين للعمل فى المكتبات، وساهم مع أكاديميين آخرين بتدريس مادة "استرجاع المعلومات عن طريق البحث الآلي".
وفى أثناء عمله وخلال عشر سنوات قضاها فى قطر، كانت له إسهامات ونشاطات عامة متعددة، فى مجالات مختلفة:

أولا- كان أحد الأعضاء المؤسسين لمشروع " إسهامات المسلمين فى الحضارة العالمية" كما ذكرنا آنفًا.

ثانيا – استضافته الإذاعة القطرية لتقديم سلسلة من اللقاءات الأسبوعية مع مذيعيْن من أبرز الإعلاميين وأشهرهم حينذاك هما: يوسف حيدر السورى، و صلاح خليفة المصرى، وقد استمرت حلقات هذه السلسلة لمدة عامين، وكان موضوعها الأساسي هو القراءة، والتثقيف الذاتى. وقد دارت حول العناوين التالية :
لمَ يجب أن تقرأ..؟ وماذا تقرأ..؟ وكيف تقرأ قراءة هادفة..؟ وكيف تستوعب.. وتلخّص ما استوعبتَ..؟.. وكيف تُنمّى مهاراتك فى القراءة ..؟ وكيف تُقيّم وتختار الكتب للاقتناء والقراءة..؟ وكيف تبحث فى المكتبات..؟؟ وكيف تستخدم المصادر المرجعية فى البحث عن المعلومات..؟ وكيف تصنع لنفسك برنامجا للقراءة المستديمة..؟؟

ثالثًا- فى إطار إتحاد الدول الخليجية: أسهم فى جميع لقاءات، ومناقشات عمداء المكتبات الجامعية ، وفى جميع الندوات التى انعقدت بهذا الخصوص، وقدّم فيها مقترحات وأوراق بحث حول: إنشاء شبكة معلومات موحدة بدول الخليج، وخدمة استرجاع المعلومات عن طريق البحث الآلي المباشر، وإنشاء فهرس آلى موحّد لجميع مقتنيات مكتبات الجامعات الخليجية، وإنشاء نظام تبادل الإعارة بين هذه المكتبات..

رابعًا : أسهم فى مؤتمر الجامعة العربية ممثلا لجامعة قطر(الذى انعقد فى تونس عام ١٩٨٧) لبحث أساليب ميكنة فهارس المكتبات الجامعية فى البلاد العربية..

استقال من عمله قبل أن يصل إلى السن القانونية للتقاعد بأربع سنوات، لكي يتفرغ للكتابة التى يعشقها ويحلم بها من زمن طويل، بعيدا عن أسْر الوظيفة وقيودها..

وقد تطوّع بعض الأصدقاء بإنشاء موقع خاص باسمه فى شبكة الإنترنت ورابطه هو:"http://www.myades.com"

كتب منشورة للمؤلف:

١- الإسلام بين الشرق والغرب. تأليف على عزت بيجوفيتش، (ترجمة) ، تقديم الطبعة الثالثة للدكتور عبد الوهاب المسيري. القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩
٢- مختصر الإسلام بين الشرق والغرب: إعداد وتقديم . ط١.القاهرة: دار المختار الإسلامي ، ط٢ مكتبة الإمام البخاري، ٢٠٠٩
٣- الإعلان الإسلامي. على عزت بيجوفيتش،(ترجمة). القاهرة: دار الشروق ، ١٩٩٩ وطبعة٢ مكتبة الإمام البخاري ، ٢٠٠٩
٤- مذكرات على عزت بيجوفيتش (ترجمة واختصار). ط١، القاهرة: دار المختار الإسلامي، ٢٠٠٤ وط٢ مكتبة الإمام البخاري، ٢٠٠٩.
٥- مشروعات الإصلاح والنهوض بالعالم الإسلامي فى فكر الرئيس على عزت بيجوفيتش. الجيزة: مركز الإعلام العربي، ٢٠١٢.

٦- البوسنة فى قلب إعصار. القاهرة: دار المختار الإسلامي ، ٢٠٠٠.
٧- كوسوفا بين التشويه والأساطير. القاهرة: المختار الإسلامي ، ١٩٩٨.
٨- كوسوفا بين الحقائق التاريخية والأساطير الصربية. القاهرة: دار المختار لإسلامي، ٢٠٠٠
٩- الحرب الشيشانية بين التأليف والتزييف. القاهرة: دار المختار لإسلامي ، ٢٠٠٠.
١٠- محمد أسد: سيرة عقل يبحث عن الإيمان. ط١ القاهرة: دار المختار الإسلامي، وط٢ مكتبة الإمام البخاري. ٢٠٠٩.

١١- تجديد الفكرالديني فى الإسلام لمحمد إقبال- الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية ، ٢٠١٠ (تمت ترجمته بتكليف من مكتبة الإسكندرية ضمن مشروع إعادة نشر مؤلّفات المفكرين الإصلاحيين فى العالم الإسلامى).
١٢- الإمبريالية الأمريكية من الغطرسة إلى الانهيار. تقديم أ.د. عادل حسن غنيم. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
١٣- نهب الفقراء: الإنسان فى عالم التكتُّلات الاحتكارية . تقديم أ.د. كمال عرفات نبهان. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
١٤- الشيطان طبيبًا : الحرب البيولوجية على العالم الثالث. القاهرة: مركز الإعلام العربي، ٢٠١٣.
١٥- الدولة العثمانية فى أوربا: من سمات العبقرية فى الحضارة الإسلامية. تقديم أ.د. عادل حسن غنيم . القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
١٦- الفلبين . القاهرة: دار المعارف .١٩٦٩ (سلسلة شعوب العالم) .
١٧- البؤساء: مجموعة من القصص الفلبينية القصيرة للأديب الفلبيني "بِيِنْفِنيدو سانْتوس" (ترجمة). القاهرة: المؤسسة الدولية للنشر والمعلومات ، ١٩٨٤.

١٨- الدولة اليهودية، لثيودور هرتزل. (ترجمة). تقديم ومراجعة أ.د. عادل حسن غنيم. ط٢ القاهرة: مركز نصوص ،٢٠٠٦ صدرت طبعته الثالثة من مكتبة البخارى ٢٠٠٩م.
١٩- سقوط الأكاذيب : تفنيد شبهات العلمانيين حول الشريعة الإسلامية. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
٢٠- تاريخ بهوت : مخطوطة بقلم صالح محمد فارس (بحث وتحقيق). القاهرة: جزيرة الورد،٢٠١٣.
٢١- تاريخ القليوبية: مخطوطة بقلم صالح محمد فارس (بحث وتحقيق). القاهرة: جزيرة الورد،٢٠١٤.

--٢٢The History of Israeli-Arab Conflict (1952-1975); an Annotated Bibliography. Canberra College of Advanced Education. (Australia), 1976

٢٣- المترفون والمفسدون فى الأرض . من إصدارات المعهد العالمي للوسطية ، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ،٢٠١٦ م
٢٤- رحلة عقل فى دروب الفكر والأدب . القاهرة : مكتبة جزيرة الورد ، ٢٠١٦م
٢٥- نافذة على فكر محمد إقبالا وإبداعاته الشعرية. القاهرة مكتبة جزيرة الورد ٢٠١٦م
٢٦- الإسلام والمسلمون في الفلبين:

كتب تحت النشر:

٢٧- الإسلام والمسلمون فى آسيا الوسطى.
٢٨- الثورة المصرية : معركة حياة أو موت .
٢٩- الفارس المجهول فى الحرب الفلسطينية.
٣٠- الإسلام والمسلمون فى مقدونيا.